الحوار

وظلم ذوي القربى ...

بقلم : محمد مزالي

لطالما عبرنا عن أسفنا من ظاهرة العزلة الفكرية بين الشرق والغرب العربيين (1) ودعونا الى مزيد التعارف والاتصال للتمهيد الى التعاون الحق والعمل على تحقيق الوحدة العربية السليمة التى لن تكون ثابتة باقية الا اذا رسخت فى القلوب وتجلت فى السلوك قبل ان تقرر فى الدساتير .

فنحن نتألم ونبتسم ، فى آن معا ، عند مطالعة كتابات بعض المثقفين المشارقة فاذا كل واحد منهم ينسب الى قطره رسالة تاريخية ويعتبره مؤهلا - دون سواه - فكريا وحضاريا لحل ازمة الفكر القومى وانارة سبيل البلدان العربية الاخرى (2) ، من دون ان يكلف نفسه مشقة التعرف الى الاقطار

---

(1) راجع خاصة المقال الافتتاحى الصادر بمجلة الفكر فى غرة افريل 1971 .

(2) طالعت اخيرا فى هذا الصدد مقالا افتتاحيا لمجلة الثقافة المصرية (السنة 5 العدد 53 فبراير 1977) يقول صاحبه الدكتور عبد العزيز الدسوقى ، رئيس تحرير المجلة المذكورة : « لا شك ان هذه المسؤولية - اى مسؤولية حل ازمة الفكر القومى - تقع فى الدرجة الاولى على مصر .. فهى مؤهلة بمفكريها واعلامها ومؤسساتها العلمية والثقافية العريقة ، ومؤهلة بمناخها الديمقراطى الذى ينمو الان باطراد وارجو ان يصل الى الغاية ليتسع على بقية الاجزاء العربية التى لا تزال تغرق فى متاهات التحكم الشمولى (كذا ... والله) ومؤهلة بوحدتها الفكرية والروحية وضميرها العلمى وحسها الاخلاقى »
أما نحن فى بقية البلدان العربية .. فأمرنا لله يا دكتور ..

العربية الاخرى وخاصة فى بلدان المغرب العربى الكبير التى ظلت فى الماضى مهضومة الجانب بسبب عقدة التفوق لدى الكثير من الكتاب والدارسين فى المشرق (3) ويأبى عدد من الاخوان المعاصرين الا الاصرار على هذا الموقف السلبى الذى مهد اليه نفر من السلف .. الصالح ثم عمقه الاستعمار عندما شيد سورا فصل به بين بلاد المغرب وبين المشرق العربى مدة تجاوزت القرن .. دون ان يهتدوا الى ان الامانة العلمية والمصلحة الوطنية العليا وأدنى معانى الأخوة والتضامن تقتضى كلها تصفية الأجواء والتقارب والتعارف الحقيقى باستئصال كل انواع المركبات .

ولقد حلل الاستاذ هشام جعيط بصورة علمية متزنة الواقع الفكرى ومستقبل الثقافة فى المغرب العربى (4) دون ان يجنح الى ما جنح اليه الدكتور

---

(3) يكفى ، كشاهد على ذلك ، التذكير بنظرة بعض الجغرافيين العرب الى المغرب العربى ، فهذا الاصطخرى يعتبره على الخريطة « كم الثوب » وهذا ابن الفقيه يضعه بمثابة « ذيل الطائر » بينما يقول ابن حوقل والمقدسى والمسعودى عن مصر انها « أحد جناحى العالم » وعن القاهرة انها « قبة الاسلام » ..

(4) يقول الاستاذ هشام جعيط فى كتابه « الشخصية العربية الاسلامية ومستقبلها » (ص 11 و12) ما يلى : ورغم كل هذه الصعوبات ، فانى ابقى متيقنا من ان تجديد الفكر العربى لن يأتى من المشرق بل من هذا المغرب الممزق . ذلك انه ، اذا امكن لنا ان نأسف ان كانت النهضة الفكرية في الجناح الغربى للعالم العربى دون مستوى النهضة السياسية فان الاتجاه العام يسير نحو ارتفاع مستوى النهضة الفكرية . اما المشرق فان السبق الذى غنمه قديما قد توقف وان انشأن يدعو لا الى الحديث عن الركود او التمزق بل الى الحديث عن التأخر الثقافى . فأى تعثر هذا الذى عرفه المشرق بالنظر الى الحركة العارمة المشهودة فى النصف الاول من القرن العشرين ذلك ان شدة وطأة الحكم خنقت كل نظر حر وأكثر من ذلك ، فان الفكر فى المشرق لم يتلاقح مباشرة مع الثقافة الغربية . ونتج عن هذا ضرب من الاستيعاب المشوش او المغلوط لما هو موجود فى المعاصرة التى افرزها العالم الحديث . هذا علاوة على الرؤية المغلوطة التى تم اضفاؤها على التاريخ العربى القديم . وان قلب الاسلام والعروبة هذا تطابق مع نفسه ومع ماضيه الى الحد الذى اصبح معه لا يتسنى له أن يرى نفسه ويرى

الدسوقي من شوفينية وتحيز . ومع ذلك فنحن متمسكون بالتواضع العلمي ومؤمنـون بأن شـرف تجاوز أزمـة الفكـر العربـي الاسلامـي سينالـه كل العرب الأصيلين أيـا كـان منبتهـم ولا نـزال نقـول ـ ونكتـب ـ ان الزمن كفيل وحده بفتح البصائر وبايجاد الظروف النفسانيـة والثقافيـة الكفيلة بتحقيق الاتصال الحضارى الحق بين كافة شعوب الوطن العربى الكبير متفائلين بمستقبل أمتنا فحسب بل مؤمنين كذلك بوحدة المصير وبانتسابنـا الحميم الى حضارة عريقة واحدة كريمة المعدن ، اسلامية الجوهر ، عربية اللسان، انسانية الاتجاه والغاية (5) ولوعينا المتزايد بأن مواجهـة الاستعمـار بكـل أنواعه وخاصة الاستعمار الفكرى والايديولوجي لا تتيسر الا اذا استقل الفكر العربى الاسلامى وتوحد وابتكر وأشع وكان بذلك وفيا لماضيه المجيد .

ولكن الذى حز فى النفس هو ان بعض « الاخوة » لا يكتفـون بالصمت او اجترار الافكار القبلية ، فكثيرا ما تقوم اوهام الدعايات بيننا وبينهم حائـلا دون التعارف الحق فينقل بعضنا عن بعض اراجيف واخبارا .. ثـم ننسـى انها اوهام .. بل انهم يبادرون بين الفينة والاخرى باجراء « أبحاث » وتحبير مقالات فيها من الاخطاء افدحها ومن الشتائم اقذرها ومن الأكاذيب اسفلها ، فهى ترهات تثير الحساسيات وتعمق الخلافات وتباعد بين الاخوة وتعـاضد ـ بالتابع ـ الاستعمار فى سعيه الى عزلنا بعضنا عن بعض لمزيد القدرة على ضربنا واستغلالنا والهيمنة علينا جميعا .

ففى الوقت الذى يتعرض فيه العالم العربى بقسميه المشرقى والمغربى الى ضروب من الحملات المسعورة والمسمومة من قبل الصحافة والنشريات الغربية التى تسيطر عليها الصهيونية والقوى الاستعمارية ، حيث حظ المغرب العربى من الثلب والتعريض اوفر واشد ، نطالع بكل اسـف مقـالات للبعـض مـن اشقائنا ـ الى جانب اعدائنا التقليديين وكـل الاستعماريـيـن والصليبييـن

ماضيه . اما المغرب فان تمزق شخصيته التى تفرز نوعا من البعـد ازاء نفسه ، من شأنه أن يصدع بوجهة نظر خاصة تكون شرطا اساسيا لكل حقيقة . وسيبقى المغرب بدون شك مدة طويلة متأخرا عن المشرق فيمـا يتعلق بعدد التآليف وتنوعها نظرا الى جمعه بين التشبث المفرط بالقديم وبين التفتح الكبير ولكن المغرب سيسبق المشرق لا محـالة فـى نـوع التآليف وقيمتها وهو الآن على وشك ان يصل الى ذلك .

(5) راجع « كتابنا » وجهات نظر ـ ص 85 (الشركة التونسية للتوزيع) .

الذين لم يهضموا استقلالنا ، يتهجمون فيها علينا بما لا يليق وربما يحاولون ان ينتصبوا اوصياء علينا ، فيتولونا « بالنصح والارشاد » ويدعونا الى الرجوع الى الجادة وقديما قال الشاعر العربى .

وظلم ذوى القربى اشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند (6)

ومن ذلك هذا المقال الذى صدر بعنوان « أزمة اللغة العربية فى المغرب العربى » ونشرته مجلة الموقف الادبى الغراء (7) . وما كنا لنقف عند هذا المقال ، ونعيره كبير اهتمام لو لا انه نشر بالذات على صفحات المجلة الرسمية لاتحاد الكتاب العرب بدمشق التى نعرف عنها انها تلتزم الموضوعية والتحرى فيما تنشر من المباحث . وإنا نتوقع بسبب ذلك ، ان هذا المقال سيبقى فى اذهان قراء المجلة ـ وهم على حسن نية ـ صورة مشوهة عن الوضع الاجتماعى والثقافى والتربوى فى اقطار المغرب العربى .

ان من يقرأ ما جاء بقلم ابن الدوايمة يستخلص ثلاث ظاهرات يتصف بها الوضع فى المغرب العربى على زعم الكاتب :

---

(6) من اغرب ما يلاحظ فى هذه الاسابيع ان عددا من الصحف فى اقطار عربية كثيرة نقلت مقالات سياسية واجتماعية عن صحف من اوربا الغربية والولايات المتحدة ـ من باب الامانة الصحفية طبعا ! ـ من دون ان تنتبه الى ان لعابها الاستعمارى والصهيونى يتقاطر حنينا الى تونس الامس ورغبة فى احتوائها من جديد . ومن الصحافيين الاشقاء من يزور بلادنا لاول مرة فيكتشفنا .. كما اكتشف ك. كولومب القارة الامريكية ، من ذلك ما جاء فى واحد من خمسة مقالات لرؤوف شحورى نشرت بجريدة « القبس » الكويتية الغراء (ما بين 26 فيفرى و 2 مارس 1977) تحت عنوان : « تونس ليست لبنان الاخر ولن تكون » . ومما جاء فيها : « كنت اظن أن تونس دولة عربيةفى شمال افريقيا لغتها الثانية هى الفرنسية واعتقد الآن أن تونس دولة اوروبية ناطقة بالفرنسية لغتها الثانية هى العربية .. وهذ الانطباع لا ينقص فى شىء من عروبة تونس الصادقة والحقيقية » (ألف مبروك لهذا الاكتشاف) والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ..

(7) مجلة « الموقف الادبى » (عدد 81 ـ كانون الثانى 1978) بامضاء عبد الرحمان سلامة (ابن الدوايمة) .

1) ان اللغة العربية فى المغرب العربى كفنت وقبرت ، اذ ان التيار الداعى لاعتماد اللغة الفرنسية رسميا لغة العلوم والثقافة والادارة والتعليم ، قد « نجح نجاحا كبيرا فى تحقيق اهداف الاستعمار الثقافي بفرض استراتيجيته الرامية الى ابعاد اللغة العربية عن مكانتها الحقيقية » (ص/103) فالفرنسية ، على حد قول الكاتب ، اصبحت « لغة كل شىء فى المغرب وتونس » ، ونتج عن ذلك « انطواء بلدان المغرب العربى على نفسها وتفتحها على أوربا وابتعادها فكريا ولغويا عن الوطن العربى » وادى بها الامر الى « معاداة كل ما هو عربى » ، حتى ان « مدير المدرسة يتحدث بالفرنسية ، والوزير يحادث عامة الشعب بالفرنسية ، ويتصنع اللكنة الباريسية » (ص / 104) .

2) ان الشعوذة منتشرة فى بلدان المغرب الثلاثة انتشارا غريبا بتشجيع من السلطات نفسها ، حتى ان المشعوذين ـ من « كتاب الحروز وقراء الفنجان ، وادعياء الطب ومعرفة الغيب ، وأولياء ومرابطين وأصحاب الكرامات الزائفة الكاذبة » قد كان عددهم فى عهد الاستعمار 45300 ، وتضاعف عشر مرات بعد الاستقلال هذا بالاضافة الى ان نسبة الامية قد بقيت مرتفعة جدا اذ تقدر بـ ٪76 فى المغرب و ٪59 فى الجزائر و ٪54 فى تونس (ص/105) .

3) ان « الدين الاسلامى لا يدرس فى التعليم العام » مما نتج عنه « انتشار البغاء والمتاجرة بالجنس بشكل يفوق اوربا نفسها » (8) حتى بلغ عدد البغايا فى المغرب « ثلاثة ملايين » وتشكل هذه النسبة ٪13 فى الجزائر و ٪39 فى تونس (ص / 105 و 106 ..)

هذه ابرز الخصائص التى ألصقها كاتب المقال (وهو من هو ؟) بشعوب المغرب العربى ، وهذه نماذج من الاحصائيات والارقام التى اعتمدها ، مع انه لم يذكر واحدا من المراجع والمصادر التى استقى منها معلوماته وجاء بها فيما اقدم عليه من التهجمات .

---

(8) ان اتهام المرأة فى اقطار المغرب العربى بالبغاء امر لا يدل الا على مستوى اخلاق المدعى ونحن ارفع من ان ندخل فى مثل هذه المهاترات وان ننزل الى هذا الحد من الاسفاف والسوقية .

ونريد ان نقول بكل صراحة لقراء مجلة « الموقف الادبي » الكرام انا في تونس على كل حال (9) قد تحملنا من بعض اخواننا في الشرق ، ولا نحسب الجماهير العربية تشاطر السيد سلامة رأيه ، وتقبل مزاعمه مسلمة ، لقد تحملنا ان يجهل بعضهم كل شيء عن كفاح الشعب التونسي ، وعن صموده أمام هيمنة الاستعمار الاستيطاني ، وعن جهاده في سبيل الحفاظ على شخصيته العربية الاسلامية ومن اجل استرجاع حريته والظفر باستقلاله .

وتحملنا ايضا ان يجهلوا كل شيء عن الجهود والتضحيات الجسيمة التي ما انفكت تونس تبذلها بالرغم من موارد ثروتها المحدودة منذ ظفرت باستقلالها سنة 1956 لنشر التعليم وتحقيق ديمقراطيته ، حتى ان عدد التلاميذ والطلاب اناثا وذكورا بلغ في السنة الدراسية الجارية 1.250.000 ، بينما لا يتجاوز العدد الجملي لسكان تونس ستة ملايين وبلغت نسبة ميزانية وزارة التربية القومية وحدها 32٪ من ميزانية الدولة .

وتحملنا كذلك ان لم ينتبهوا الى الجهود الجبارة العنيدة التي ما انفكت تونس تبذلها في سبيل التخلص من الاستعمار الثقافي الذي حل بها مع الاستعمار الاستيطاني ، وخصوصا لدعم تعليم اللغة والاداب والثقافة العربية ولتحقيق التعريب للمواد الدراسية ، سنة بعد اخرى ومادة بعد اخرى ومرحلة بعد اخرى بحسب توفر الوسائل البشرية والمادية ، وكذلك في سبيل دعم التربية الاسلامية في جميع المستويات التعليمية .

كما تحملنا ، وكم في ذلك من شعور بالحيف ، ان تكون الكتب المدرسية والمناهج التعليمية عندنا زاخرة بدراسة الاثار الفكرية والادبية المشرقية ، وكثيرا ما يكون ذلك على حساب التراث التونسي بينما لا نكاد نجد في الكتب والمناهج المدرسية بالشرق العربي شيئا يذكر عن الادب التونسي او عن الادب المغربي بوجه عام ، لا القديم منه ولا الحديث .

وقد تحملنا كل ذلك وتفهمنا الظروف التاريخية التي يسرته ولكن طفحت الكأس عندما وقفنا على هذا المقال الذي حشاه صاحبه حشوا بالاباطيل المسمومة والادعاءات الكاذبة لانه يشوه الواقع ويوغر الصدور وكدنا ان نرمي

---

(9) نترك لاخواننا في المغرب والجزائر مسؤولية الرد فيما يخص قطريهما اذ هم بواقعهم أعلم .

المقال .. عرض الحائط ولكن عقيدتنا العربية الاسلامية ابت علينا الا أن نوضح لقراء « الموقف الادبي » الكرام وللناطقين بالضاد عامة بعض الحقائق احتراما لهم وخدمة للحقيقة .

وهذه بعض المعطيات التي تبين ما يوليه النظام التربوي التونسي الفتي من العناية لتعليم اللغة والاداب العربية ولفائدة التربية الاسلامية .

فأما اللغة العربية فان تعليمها يستوعب :

أ ـ 1475 ساعة على طول مدة ست سنوات في المرحلة الابتدائية ، التي يركز فيها التعليم على حذق قواعد اللغة مع التدريب على التطبيق والتعبير السليم من خلال محاور اهتمام ونصوص تتعلق بسائر مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، ومختارات من الاثار القديمة والحديثة .

ب ـ 1095 ساعة يقضيها تلاميذ المرحلتين المتوسطة ، والثانوية ، بما في ذلك تلاميذ شعب اعداد المعلمين ويستمر هذا التعليم مدة سبع سنوات ، ويواصل التلاميذ فيها ممارسة قواعد اللغة ودراسة محاور اهتمام واغراض ادبية ـ قديمة وحديثة ـ عن طريق نصوص مختارة تتعلق بالحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وتتصل بابرز التيارات الفكرية والادبية والحضارية ، والغرض منها ـ الى جانب حذق التعبير السليم ـ تنمية قدرة التلميذ على الملاحظة والتحليل والنقد ، وتهذيب ملكاته الفكرية والذوقية والعاطفية .

واما فيما يتعلق بالتربية الاسلامية ، فان حظها يقدر بـ 185 ساعة في المرحلة الابتدائية و بـ 435 ساعة في المرحلة الثانوية ، ويركز فيهما التعليم على كل ما من شأنه ان يبصر التلميذ بسلامة العقيدة الاسلامية ، واغراض العبادة، ووجوه الهدى القرآني والنبوي ، وكذلك على كل ما يدعو الى قويم السلوك ورشيد التفكير ، هذا الى جانب تحفيظ نصيب وافر من آيات القرآن الكريم، يتناولها المدرسون بالشرح ويعتمدونها في بناء مادة دروسهم ، وعلى سبيل الاشارة السريعة ، فان التربية الاسلامية تتناول العقيدة في السنة الاولى من التعليم الثانوي ثم العبادات في السنة الثانية والمعاملات المالية في الثالثة ، والمعاملات الاجتماعية في الرابعة واصول الحكم في الخامسة ، ومصادر التشريع ومقدمات الاجتهاد في السادسة ، والبحث المعمق في مشاكل العصر ودعوات الزيغ والالحاد في السابعة . والى جانب كلية الشريعة واصول الدين التي تحمل اليوم عن جدارة مشعل جامع الزيتونة الذي اضاء العالم

الاسلامي من تونس - قبل الازهر وغيره من الجامعات الاسلامية - منذ حوالي ثلاثة عشر قرنا ، فان بمدينة القيروان التي اسسها عقبة بن نافع سنة 50 هـ (670 م) معهدا مختصا في الوعظ والارشاد ودراسة علوم الدين في المستوى الثانوي ، ويتخرج من هذا المعهد في كل سنة اطارات للوعظ والارشاد الديني في المساجد والجوامع ويتخرج منه كذلك شبان يوجهون بعد نجاحهم في دراستهم التي تتواصل سبع سنوات الى الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين ، حيث يلتحقون بحاملي الباكالوريا قصد التأهل للاستاذية ولتدريس التربية الاسلامية في المعاهد الثانوية ، ويمكنون من التخصص والتعمق في مباحث علوم الدين على اختلاف ابوابها .

مع العلم اننا لا نستعمل ابدا اللهجة العامية في تدريسنا ، خلافا لما هو موجود في بعض الأقطار العربية ، إذ ان التعليمات الرسمية تفرض فرضا على المدرسين في جميع المستويات استعمال اللغة الفصحى في القاء دروسهم ومخاطبة تلاميذهم وطلبتهم ، ايمانا منا بان اللغة العربية لغة حية قادرة على ان تكون اداة طيعة تعبر عن جميع مرافق الحضارة وتواكب الحياة في زحفها الدائم .

وبعد هذه اللمحة الموجزة عن واقع الوضع التربوي والثقافي في تونس ، فانا نتساءل عن مقصد كاتب المقال بما قدمه لقراء المجلة من الاحصاءات الوهمية والنسب الغالطة عن الامية ، والبغاء ، والشعوذة أين ومتى وجد كل ذلك ؟ .

وما كنا لنتكلف عناء الرد على مزاعم الرجل لولا أننا نخشى ان يكون لها أثر نأسف له في نفوس قراء « الموقف الادبي » وذلك على مستويات متعددة .

من ذلك انه لا يمكن ان تحصل لقراء المجلة في افريقيا وفي البلدان الاسلامية منها على الخصوص الا معرفة مشوهة للحياة الثقافية والاجتماعية في بلدان المغرب فتزداد ظاهرة العزلة الفكرية بين العرب عمقا وهذا ما لا نرضاه.

ومن ذلك أن مثل هذا المقال يغرس حتما في نفوس قراء المجلة المغاربة نفورا وابتعادا عن اخوانهم في المشرق ، بسبب المعاملة التي يلقونها من بعضهم خصوصا وانها تأتيهم عن طريق مجلة اتحاد الكتاب العرب ، وهذا ما نأباه ونعمل على اجتنابه .

واخيرا فان مثل هذه العلاقات التي يعمل السيد سلامة وامثاله على تسميمها لا يمكن الا ان تعقد مهمة المسؤولين ورجال الفكر والادب ، والمربين الذين يسعون جاهدين في بلدان المغرب الى دعم الاصالة العربية الاسلامية

في مختلف الهياكل والمناهج الثقافية والتعليمية ، والى دعم اواصر الاخـوة والتعاون لمواجهة تحديات العصر للصمود امام مناورات الاستعمار والصهيونية

وفي الحق ، ان كان السيد عبد الرحمان سلامة (ابن الدوايمـة) علـى حسن نية فعسى ان يرجع الى الجادة ، ويتبين واقـع الحقيقـة ، وان كـان محركا من قبل بعض الايادى المغرضة ، فانه ـ فى نظرنا ـ قد ضم صوته الى صوت الاستعماريين والصهاينة واعداء العروبة والاسلام الذين نعـرف انهم يكيلون لنا فى السر والعلانية انواعا من الاهانات ، وضروبا مـن التشويـه والتحقير ، وسوف يسارعون ليغترفوا مما كتب ونشر بامضائه .

ولكننا نقو له ولهم ما قاله الجاحظ عن الكذاب : « ليس يصيب الكـذاب من الالتذاذ والاستمتاع بكذبه ـ ولو كذب عمره كله ـ ما يقارب ، فضلا عمـا يوازى ، ما يدفع اليه ـ ولو مرة واحدة فى عمـره كلـه ـ من هـم الخجـل والاستحياء عند افتضاحه واحتقار الناس له »

ونحن بقدر ما نستبشع الزائف من الاخبار ونتألم للمستراب من المقاصد ونأسف للتافه من الدراسات لا يسرع الينا الغضب ولا يساورنا اليأس ولا تثنينا المصاعب عن السير فى درب الاصالة والوطنية والشرف القومـى لان سجيتنا تأبى علينا التنكر لانفسنا بل سنواصل نضالنا من اجل مجد العروبة والاسلام ، ونتسلى عن مثل هؤلاء « الباحثين » الذين يعضون ـ فـى آخـر الامر ـ ظلالا ويكظمون أوهاما ، بقول الحارث بن كلدة الثقفى (10) :

من الناس من يغشى الاباعد نفعـه ويشقـى بـه حتـى الممـات اقاربـه
فـان يـك خيـر فالبعيـد ينالـه وان يك شـر فابـن عمـك صاحبـه

وأخيرا نرجو أن يفلت ابن الدوايمة من دوامته فيثوب الى رشده وان يرجع عن غيه وان يتقى الله فى إخوته وبنى عمومته بأقطار افريقيا الشمالية العربية المسلمة ولعله يتوب فيصدق فيه الحديث النبوى الشريف :

« كل بنـى آدم خطاء وخير الخطائين التوابـون »

محمد مزالي

(١٠) هو طبيب وحكيم وأديب من الطائف (670 م) غادرها الى مكـة فبـلاد فارس حيث تعلم الطب بمدرسة جند يسابور على أيدى الأطباء السريان النساطرة او تعلم ضرب العود ببلاد فارس واليمن وقد سمـى طبيـب العرب واحترف مهنة الطب فى مكة وعاصر الرسول (صلعم) .

الاشراقات

شعر : رامبو
تعريب : محسن بن حميد

5. عتيقـــة

يا ابن « بان » الرشيق
حول جبينك المكلل بالزهيرات والحلجان
عيناك كرتان كريمتان
تضطربان
خداك تتقعران
مبقعين برواسب سمراء
أنيابك تلمع
صدرك يشبه قيثارة
بساعديك الأشقرين تسرى رنات
وقلبك يدق فى هذا البطن
الذى يكمن فيه الجنس المزدوج
تنزه ليلا
محركا على مهل
هذه الفخذ
وتلك الفخذ الثانية
وتلك الساق اليسرى

6. كـائـن مـن جمـال

أمام ثلج

كائن من جمال طويل القامة
تصفيرات موت ودأئرات موسيقى صماء
ترفع كالطيف ذلك الجسم المعبود
وتوسعه
وترعشه

وفي رائع اللحوم

تنفجر جروح قرمزية وسوداء
وألوان الحياة نفسها تدكن وترقص
وتبرز حول الرؤيا على الحظيرة
وتصعد الارتعاشات وتزمجر
يصحبها مسعور مذاق تلك الآثار
المحملة بالتصفيرات القاتلة
والألحان الجشاء التي

بعيدا من ورائنا

ترمي بها الدنيا
أمنا الجمال
في فر وكر

آه

لقد كسا عظامنا

جسم جديد عاشق

يا للصفحة الرمادية
لشعار شعر الأذناب
لسواعد البلور الصافي
للمدفع الذي يجب أن أنقض عليه
عبر مشتبك الشجر وخفيف الهواء

7. حيـــوات

يا للشوارع العظيمة للبلد المقدس
لسطوح الهيكل

ماذا فعلوا بالبرهمن الذى فسر لى الأمثال
فمن ذلك الزمن ومن هناك
ما زلت أرى حتى العجائز
إنى أذكر الساعات الفضية والشمسية
نحو الأنهار ويد الحبيبة على كتفى
وأذكر مداعباتنا ونحن واقفان
فى السهول المفلفلة
طيران سرب من اليمام القرمزى
يرعد حول فكرى
فى منفاى
هنـا
كان لى ركح أمثل عليه
الروائع المسرحية لجميع الآداب
سأدلكم على الثروات المذهلة
إنى أشاهد تاريخ الكنوز التى وجدتموها
وأرى البقية
حكمتى محتقرة احتقار الفوضى
فما عدمى
إزاء الذهول الذى ينتظركم

* * *

إنى مخترع أجدر كثيرا من كل من سبقونى
وحتى موسيقار وجد شيئا
كمفتاح الحب
والآن بصفتى شريف ريف
حامض ذى سماء صبورة
أحاول أن أتأثر لذكرى الطفولة المتسولة
وعهد التدرب أو القدوم بالقباقب
وذكرى الجدالات الكلمية
والترملات الخمسة أو الستة
وبعض الأعراس حيث منعنى عنادى

من الرقى الى مستوى الرفقاء
أنا لست نادما على نصيبي القديم

من المرح الالهـي

فهواء ذلك الريف الحامض القنوع
يغذي بفاعلية كبيرة شكوكيتي الفظيعة
لكن بما أن هذه الشكوكية
لا تقدر من الآن أن تدخل حيز الفعل
وبما أنني مع ذلك منقاد الى اضطراب جديد
أنتظر أن أصير مجنونا شديد الخبث

* * *

في سقفية حيث سجنوني في الثانية عشرة
عرفت الدنيا
ووضحت بالرسوم المهزلة البشرية
وفي ممأنة تعلمت التاريخ
وفي مدينة من مدن الشمال
لقيت في حفل ليل
جميع نساء الرسامين القدامى
وفي ممر قديم بباريس
لقنوني العلوم التقليدية

وفـي
منزل بديع يحيط به الشرق كله
أتممت عملي الضخم
وأمضيت تقاعدي الشهير

لقد عركت دمي
وأعيد إلى واجبي
ولا فائدة من الآن حتى في التفكير
فـي ذلـك
فأنـا حقـا مـن
مـا وراء القبـر
ولا حاجـات

(يتبـع)

امرأة وصور...

قصة : فاطمة سليم

كانت اياما حلوة مملوءة بالعمق فى الاحاسيس .. بالرغبة الكبيرة فى الحياة ، وكان الامل عريضا واسعا ، وكنا فى بداية التطلع الى العالم الارحب عالم الكفاح .

وكنت يا حبيبى جميلا أسمر قويا .. أحببتنى بعد ساعة واحدة من تعارفنا ، أحببتنى بكل القوة المغروسة فى طباعك الصلبة ، بكل الرجولة التى حبتك بها الطبيعة لتفتننى .. وكنت مسيطرا عسكريا . وكنت تأمرنى وتقسو على ، وكنت أطيعك ، وأنفذ أوامرك ، أمرتنى ان افكر فيك وان احبك وان أرعاك ، وانشغل بكل ما يهمك فسبحت فى موجك العاتى وصرت لا انام ولا اصحو فقط أحبك وارتعش فى حضرتك ، وارتعش فى غيابك . أبكى عندما أشعر بأننى أليفة السعادة ، وأبكى عندما اخاف عليك .

★ ★ ★

وبالرغم من طراوة عودى وقلة تجاربى خضت معك حربا تحريرية ، كنت مزهوة بانتسابى لبطل هو انت ، كنت رائعا فى بدلتك العسكرية ، ونجوم الشرف والرتب تتلألأ على صدرك ، والمسدس العامر يرتاح على يمينك

وكنت دوما معفرا وعيناك تضيئان .

ولما اشتدت الحرب وكبرت مسؤولياتك قلت ابتساماتك واصبحت فى وقت ما تتكلم بالرموز وباختصار كبير ، ولم تعد تنادينى باسمى ولكننى كنت أشعر بأن حاجتك الى قد ازدادت وانك تأتى من بعيد ولفترة قصيرة فقط لكى تتزود بقبلة منى تلفح جبينك ، تحققك عزما ، تهون عليك الموت ان كان لابد منه فى سبيل بنزرت .

وكانت تعجبك دموعى وهى تتلألأ فى عينى اذ أنى ارى لمحة من الرضا تطغى على وجهك ، ففى قلبك لا شك اطمئنان حلو الى أنه موجود فى الدنيا امرأة تحبك بصدق وكنت تضمنى بقسوة وتنصرف . وأظل بعدك أبكى واكتب واتكلم ، واتخيل ، وارتب ، واغنى ، وارتمى ، واغيب عن الدنيا . كان المذياع دوما فى جيبى أسمع منه اخبار الحرب واناشيد الحماسة . لم يكن سوى جسمى حاضرا ولكن فكرى وروحى وقلبى كلها كانت معك على الواجهة تخوض النار والالم والعمل .

كنت أتخيل نفسى دوما تونس الجريحة ترفع العلم حتى النصر .

* * *

ومرة يا حبيبى دخلت على مجروحا أصابك الرصاص فى جبينك وسال دمك الزكى على ارضنا الطاهرة ليسقى نبتة اسمها الحرية والجلاء .

دخلت على معصوب الرأس بلفافات بيضاء عليها آثار دم ، وكان التعب والارهاق والحمى جيوش كلها تبغى ان تسيطر عليك وتطرحك للفراش وللضعف وللانين ، ولكنك أنت يا بطلى رفضت ان تضعف وان تنام فى المستشفى وجئت تمشى على رجليك ورصاصاتك مازالت فى جيبك وبدلتك معفرة كالعادة ، وقلبك يرتج بالشوق إلى لقياى .

حتى الموت يا حبيبى لا أستطيع ان انسى تلك الساعة التى قضيتها انتحب فى صمت بجوارك وانت ملقى على الفراش تحاول ان تكون صاحيا ولكن الحمى تغلبك على امرك وكنت تهذى :

ـ الجلاء قريب .. الجلاء قريب .. أحبك يا ليلى .. واحب بنزرت .

على جسمك أرقت كل عطورى ، غسلت رجليك بماء دافىء ، دثرتك بملاءة من الحرير ، اسدلت الستائر حتى لا يرهقك الضوء الساطع .. ابعدت عنك الساعة الدقاقة حتى أفقدك الاهتمام بشىء اسمه الزمن ، وقبعت قربك أقرأ وأبكى واسرق من حين لآخر لمسة دفء من جبينك الملتهب .

وما هى الا بعض الساعة حتى استيقظت مرتعشا سائلا لائما نفسك .

وحين انشغلت أعد لك القهوة ارتديت ثيابك وهربت منى .. لم تودعنى .. لم تقبلنى .. لم تتح لى الفرصة لكى أمنعك من الخروج .

أحسست وقتها بغم كبير .

★ ★ ★

وجاؤوا في آخر الليل ليعلموني ان حبيبي رحل ولن يعود لكنه وعد بأن يرسل بدلا منه الجلاء والحرية لبنزرت ..

وعندما كنت أبكي في صمت كان ابننا « انتصار » يتحرك بين جنبي كأنه يقول : « لا تبكي يا أمي فأنا والجلاء قادمان » .

الحركة الأولمبيّة والسّياسة

بقلم : محمّد مزالي

ان مشكل تداخل السياسة والرياضة يكاد يكون ابرز المشاكل التى تواجهها اليوم الحركة الاولمبية وأكثرها دقة .

فالنجاح المتزايد الذى تسجله الالعاب الاولمبية العصرية وشمولها واثرها القوى فى الجماهير الشعبية ، عبر القارات الخمس ، والاغراء الذى أصبحت تسلطه على الشبان وحتى على من يكبرونهم سنا منذ ان « تحكمت » فيهم بالخصوص مختلف وسائل الاعلام العصرية وأجهزة الابلاغ الجماهيرية وكذلك ما تحدثه الانتصارات الفردية والجماعية من ألوان الرجع والانعكاس النفسية والسياسية ، أعطت – كلها – الالعاب الاولمبية بعدا جديدا لم يكن ليخطر على بال ، بعيد الحرب العالمية الثانية ، واحدث ظاهرة اجتماعية ما كان لرجال السياسة وحتى رجال الدين ان يقابلوها باللامبالاة .

وهكذا فان من بين الرسائل العديدة الموجهة الى الحكومة والى الشعب الكندى بمناسبة الالعاب الاولمبية الحادية والعشرين التى جرت بمونريال فى جويلية 1976 ، رسالة البابا التى ارى من المفيد الاشارة اليها اذ جاء فيها بالخصوص : « نحن مقتنعون بانه فى إمكان التظاهرة الرياضية تنمية قيم انسانية خطيرة بالنسبة الى الجميع وعزيزة بصفة خاصة على انفس المسيحيين ، وذلك مع توفير أسباب ربط علاقات التقدير والسلم بين الشعوب فى مجال ، لا بد ان تحل فيه المنافسة السليمة محل الشحناء والتطاحن . ذلك هو الامل الذى يحدونا فى تمنياتنا النابعة من صميم القلب » .

كما يحسن ان نشير ايضا الى رسالة السيد كورت فالدهايم الامين العام للامم المتحدة التي وجهها يوم 18 جويلية 1976 غداة انسحاب عدد من الاقطار الافريقية ، وهي تتضمن نداء الى كل الاطراف المعنية حتى تواصل جهودها من أجل حل المشاكل المتعلقة بمشاركة الرياضيين الافارقة في الالعاب الحادية والعشرين ، مضيفا : « ان الالعاب الاولمبية كانت حدثا بالغ الاهمية في سبيل نشدان الاخوة والتفاهم بين البشر » .

ان اهتمام رجال السياسة يظهر بأشكال مختلفة حسب ايديولوجياتهم وحسب تصورهم لمهمتهم في مستوى مسؤولياتهم .

فمن الساسة ، وهم الشاعرون بأهمية تحول المدلولات الرياضية على الصعيد السياسي ، من لا يدخر جهدا في سبيل تنمية حظوظ النجاح لدى مواطنيهم على أمل الانتفاع بما يكتسبون من حظوة واعتبار ، وذلك لدعم زعامتهم او احزابهم او انظمتهم على السواء .

ومنهم من يستغلون الميدان الرياضي لبيان تفوق انظمتهم الاجتماعية الاقتصادية او السياسية ، ولتأكيد وجودهم ، ولتذكير الضمير العالمي بشرعية قضاياهم أو للتشهير بالمظالم أو كشف وهم من الاوهام .

بيد ان معظم رجال السياسة ، سواء كانوا صادقين أو مناورين ، يجدون أنفسهم اليوم مضطرين الى الاهتمام بالرياضة ، نتيجة للضغوط التي يسلطها عليهم الشباب والمسيرون الرياضيون والمربون ، لحملهم على تنمية الجهاز الرياضي الاساسي وتهيئة أوقات ملائمة لممارسة التربية البدنية والرياضية في برامج التعليم ودفعهم الى النهوض بسياسة الترفيه وتوفير المساعدات المالية للنوادي والاتحادات قصد اجراء المباريات الرياضية القومية والدولية في ظروف مرضية .

ان « انعكاسات » الاختيارات السياسية ، ووطأة التناقضات التي لا تفتأ تبرز وتشتد في مواقف بعض الساسة ، وكذلك « الاضرار » المنجرة عن تنازع القوميات أو عن « المباريات » الايديولوجية التي تخف أو تحتد حسب الظروف ، تضغط بصورة متصاعدة على الرياضة وبالاخص على الحركة الاولمبية التي تتسم اخلاقيتها بالانسانية والشمول وتهدف الى جمع شباب العالم حول مثل أعلى يقوم على تجاوز الذات والتفاهم والتآخي والسلام .

وهكذا يتضح موقف العديد من المسيرين الرياضيين ـ فى الغرب خاصة ـ الذين يشهرون بالسياسة ، فى شىء من التلطيف والحق يقال ، ويتنبأ بعضهم بمستقبل قاتم ما لم نتوصل الى تلقيح الرياضة ضد « جرثـومة السيـاسة » . وانه من الضرورى فى نظر هؤلاء مراجعة القوانين الاساسية والقـواعد الفنيـة قصد « التصدى الى عمل الحاكمين » واتخاذ اجراءات الوقاية من اخطار تداخل السياسة فى الرياضة .

كم هو سهل ومريح هذا الموقف الذى يقتصر دفاعه فى مواجهة ظاهرة جدية من شأنها فعلا ان تهدد الحركة الاولمبية فى روحها وقيمها المقدسة ، على الانطواء وعلى التشدد بالمعنى الحصرى والقمعى فى مفهوم القواعد الريـاضية ، قصـد تسليط اللعنة واتخاذ اجراءات الطـرد ، وبـذلك يتمكـن من حـل المشكـل بتجاهله ... (1)

ان سياسة النعامة هذه لهى فى نظـرى خطيـرة فى العـاجل ولا سيمـا فى الاجل ، ولذلك اعتـزمت فى اطـار أولمبيـا Olympie الجليـل المشحـون بالايحاءات (2) ، عرض جملة من الاراء الشخصية التى لا تلزم اللجنة الاولمبيـة الدولية ولا اللجنة الاولمبية التونسية ، والمشاركة فى نقاش هو مفتوح قبـل اليوم ، من أجل تحديد موقف أكثر وضوحا وشجاعة وبالتالى أكثر نجـاعة ، يمكن ان يتبناه المسيرون الرياضيون المتفانون فى سبيل الحركـة الاولمبيـة ، تجاه المشاكل التى تفرضها علينا السياسة ، اى الازمنة الحديثة .

ولكن لنتساءل قبل كل شىء ، هل ان تداخل السياسة فى الرياضة بوجه عام وفى الحركة الاولمبية التى تعنينا اليوم ، أمر جديد ؟ لا أظن ذلك ، اذ علاوة على شهادة التاريخ القديم والحديث بالخصوص ، فان تحليلا ـ ولو كان سطحيا ـ لمعنى كلمة « سياسة » ومدلولها يبرز الى أية درجة يكون موقف حامـل لـواء اللاسياسة الرياضية خياليا بعيدا عن الواقع .

---

(1) تعالت أصوات كثيرة ـ فعلا ـ منادية بمعاقبة اللجان الاولمبية الافـريقية التى قاطعت ألعاب « منتريال » الاولمبيـة فى شهـر جـويلية 1976 وذلـك بايقافها عن كل نشاط رياضى مدة سنوات ... ولكـن صـوت الاعتـدال والعقل تغلب فى آخر الامر .

(2) هذا فعلا نص المحاضرة التى ألقيت بالفرنسية فى أولمبيا (جويلية 1977) أمام جمع من الشباب الرياضى والمسيرين الموفودين من طـرف اللجـان الاولمبية فى العالم .

وهل السياسة فى أنبل معانيها وأكثرها شيوعا سوى فن تصريف شؤون مجموعة بشرية أو تسيير مؤسسة ، باسم مبادىء اخلاقية وقواعد قانونية رضيت بها وانضمت الى تأييدها أغلبية الاطراف المتعاقدة ؟ ان الامر لا يتعلق بالسياسة القائمة على الدس والانتهاز والوصول والمخاتلة والتخابث والتخمين بل السياسة التى تعتمد الالتزام بخدمة الغير ، والتفانى فى سبيل المجموعة التى ننتسب اليها عن طواعية ، فالامر يتعلق اذن بخدمة مثل أعلى ، وبخدمة الجماعة لا باستخدامها ، بالعطاء لا بالاخذ ، بالصدق لا بالرياء .

فليس من الجائز ولا من الامانة السهر اجتماعيا أو ثقافيا على حظوظ أمة أو بلدية أو جمعية من دون الرجوع الى سلم قيم مضبوط وتصور معين للخير والشر ، للحق والباطل ، للجمال والقبح ، للقدسى والوثنى ، للانسان والشيطان ... فلو ان كل الاختيارات التى نواجهها وكل القرارات التى يتعين علينا اتخاذها لم تنبع من رؤية شاملة للحياة ولم تكن منسجمة مع المعنى الذى نعطيه للوجود ومع تصورنا للمصير البشرى لكانت خبط عشواء ولدلت على تهافتنا وتفاهتنا .

بيد انه لا بد لنا من الاعتراف بأن سمو ايديولوجيتنا وسخاء مثلنا الاعلى لا توازيهما الا نسبيتهما فى الزمان والمكان . وانه لمن قبيل العبث ولغو الكلام ان ندعى فى هذا الميدان قيام مقاييس موضوعية وعلمية مضبوطة . ان احدا لا يستطيع ان يزعم تقمص التاريخ أو امتلاك سر العصمة . نحن جميعا منطبعون بتربيتنا وبارثنا الثقافى وبيئتنا الاجتماعية وان الايديولوجية الفردية والجماعية المحيطة بنا ، تهدى عملنا وتكيف الى حد كبير سلوكنا ، وتوجه فى أغلب الاحيان أحكامنا .

ان من بين العوامل التى تزيد من حدة سوء التفاهم بين البشر ، وتذكى جذوة التطاحن القومى بينهم وتدفع بهم الى المغالاة عندما يمارسون مسؤوليتهم السياسية ، العامل الذى ذكره « بيار دى كوبرتان » (1) والمتمثل فى الطريقة التى يدرس بها التاريخ فى أغلب بلدان العالم بحيث يصبح « معمل تضخيم اجبارى للاحداث ان لم يكن معمل تهييج قومى » وهكذا فاننا فى الوقت الذى نستمع فيه الى بعض الخطب الرنانة التى تؤكد ايمان اصحابها بالانسان ونشاهد فيه بعض المواقف التى قد تكون مخلصة – على سذاجتها الواضحة –

(1) فى رسالة موجهة الى عصبة الامم سنة 1933 .

فى تعلقها بمفهوم ضبابى للرياضة باعتبارها فوق الاهواء ، وبعيدة عن النزاعات السياسية وعن الضغوط الاجتماعية والاقتصادية يبدو لنا انه لم تتوفر شروط فتح حوار حقيقى وخاصة منها التحلى بالتواضع والتسامح والاحترام المتبادل وانفاق الجهد اللازم فى التعرف على الآخرين ثم فى الاعتراف بهـم وذلـك لان العقليات تنغلق على نفسها باعتبار كونها ـ كما أكده بيارِدى كوبرتان ـ تكيفت بسبب تدريس للتاريخ القومى ، سابق لاوانه ، مـع مـا يتضمنـه من مبـالغة وتشويه لا يمكن اجتنابهما .

كم تبدو وهمية اذن نظرية اللاسياسة فى الرياضة عندما تتجاهل واقع العالم المعاصر وكم تبدو مشبوهة أو على الاقل قابلة للنقاش قضية تسييس الرياضة عندما تسمح لكل انسان يتزيى فى عفة واحتشـام بالمبـادىء الكبـرى وان يؤاخذ غيره على ما يؤاخذه به الآخرون .

وليس بأقل احراجا من ذلك موقف الذين لا يتهمون السيـاسة والسياسيين بكل ما يحل بالرياضة من مصائب ، ولكنهم يلـوذون بحيـاد ريـاضى مريـح ويمتنعون عن اتخاذ موقف ازاء النزاعات التى يمكن ان تندلع فى عالم الرياضة وان تفرق بين الناس .

ولكن هل بوسع المرء ان يشارك كليا فى ادارة منظمة رياضية دون ان يبدى رأيه بوضوح حول كل المسائل التى يطرحها أو يفرضها عدم انسجام القـوانين والتراتيب الرياضية مع واقع اليوم ، وكـذلك عـدم تلاؤمهـا مـع الجغـرافية السياسية الجديدة تبعا لحصول عدد كبير من الامم على الاستقـلال والحـرية ، وللتحولات الاجتماعية السريعة العميقة الحاصلة فى كافة القارات ، سـواء فى الاقطار الغنية أو الاقطار النامية ؟ هل بوسعه ان لا يعيـر انتباهـا الى تحريـر المرأة ، والى انتفاضة الكرامة والعزة التى تهـز اليـوم « المعـذبين فى الارض » الذين يناضلون من اجل الحصول على مكان تحت الشمس ، والـذين تصـدهم بعض الاحكام المسبقة والتقاليد البالية عن الاضطلاع كليا بمنزلتهم كبشر احرار ومسؤولين ؟ كيف نثير حساسية وحماس ملايين الشبان والشابات بخصوص عظمة الحركة الاولمبية ؟ كيف نجعلهم يتعرفون على ذواتهم فيها ، وينهضون بها باعتبارها اخلاقا وفلسفة ، اذا كانوا الى جانب ذلك مهما قيل ومهمـا يقـال لا يفهمون اللاسياسة فى عالم تتواصل فيه المظالم والتمييز العنصرى إلا كموقف سلبى وتعلة تدعم الامتيازات وتقوى نزعة المحافظة العقيم .

أتراهم يمارسون السياسة أولائك الذين ناضلوا وظفروا باقصاء افريقيا الجنوبية عن العائلة الاولمبية لكونها تتمسك ـ رسميا ـ بالتمييز العنصرى ؟ هل من قبيل الضلال السياسى ان نعمل على ايجاد تمثيل اكثر ديمقراطية لكافة القارات لدى اللجنة الاولمبية الدولية أو لدى الاتحادات الرياضية العالمية ؟ هل من قبيل الانحياز السياسى ان نعمل على مراجعة التراتيب الاولمبية حتى لا يرجع شرف تنظيم الالعاب الاولمبية الى مدينة معينة بل الى قطر أو مجموعة أقاليم متجاورة ؟ والى متى يتشبث بالنصوص القديمة انصار المنزلة المرصودة للمرأة فى المباريات الاولمبية ؟ كيف نتوصل الى اقناع فتيات العالم ، رغم ما تحصلن عليه من تقدم محسوس خلال السنوات العشر الاخيرة ، بانه من الطبيعى ان تتضمن الالعاب الاولمبية الصيفية 44 مباراة نسائية مقابل 137 مباراة للذكور (1) .

أفليس من باب الصدق فى الرياضة ومن قبيل الوفاء والشجاعة الفكرية ان نقاوم الجمود والاتباعية والافكار الموروثة ؟ أفلا يدل رد الفعل هذا على نظرة رياضية سليمة وضرورية لتحقيق الانسجام بين القواعد ومقتضيات الساعة ، وعلى التوقى من كل الاسباب التى يمكن ان تشوه الصورة المثلى للحركة الاولمبية ، او ان تضر بالاشعاع المتزايد للالعاب الاولمبية ؟

كل شىء يتطور ، الاشياء والبشر على السواء . أليس سقراط ، أبو الفلسفة والابن الجدير بهذه الارض الاغريقية المشحونة تاريخا وحكمة ، هو أول من علمنا بسؤاله الخالد « ما هذا ؟ » ان نحلل الكلمات وان نعمق المفاهيم الاخلاقية وان نحيط بالواقع أكثر فأكثر ؟ لقد تجرع السم وتلاشى جسمه . ولكنه لم يزل حيا فينا ، لا يفتأ يعلمنا تجاوز الذات ، والحذر من المغالطات ، والتفكير بصورة متحررة من الاحكام القبلية والعادات الموروثة والاراء المسبقة ، والبحث عن الحقيقة والسعى الى خلقها واعادة خلقها على الدوام وصنع المستقبل .

ان التاريخ يجعل الافكار والاحداث نسبية . وانه ليحسن ان نذكر الذين يتمسكون فى اصرار بابقاء الوضع على ما هو عليه ، وبآسم اللاسياسة

---

(1) بالنسبة الى الالعاب الشتوية : 23 مباراة للذكور .
12 للاناث .
2 مختلطتان .

الرياضية أو الاولمبية ، بتصريح لبياردى كوبرتان مجدد الالعاب الاولمبية ، يقول فيه : « مارست كثيرا العيش فى صلب التاريخ العام ، وتفحص مطاويه ، لذلك لا أجهل قيمة فكرة التطور ، ولا اندهش فضلا عن كونى لا اغتاظ للاقاتها فى كل مكان . ان كل مؤسسة وكل عملية خلق مهما كانت حيويتها ، تتطور طبقا لسنن الظروف وانفعالاتها . **ان السياسة تدخل اليوم فى صلب كل مشكل** . كيف نود اذن ان تفلت منها الرياضة والفتوة وحتى الحركة الاولمبية ؟ »

اعتقد ان هذه الكلمات التى تفوه بها مجدد الالعاب الاولمبية ستسهم فى التخفيف من الحساسية التى يشكوها اليوم المتمسكون بضرب من اللاسياسة فى الرياضة ، أعنى أبطال إبقاء الوضع فى جموده المرهق .

وفوق ذلك فقد ندد بيار دى كوبرتان اكثر من مرة فى « مذكرات أولمبية » بالنزعة المحافظة المتصلبة ، كما انه ابرز بطلان مقابلة نزعات التجديد بهشاشة الرفض التقليدى البات .

فباسم سياسة رياضية سخية واعية ، غايتها الاولى دعم الحركة الاولمبية بجعلها تحظى بمزيد من الثقة والجاذبية لدى كافة البشر فى العالم دون أى تمييز ، وبجعلها عامل تنشيط للشباب ، وأداة نهوض وتهذيب وتحرير ، عمل بياردى كوبرتان ـ وبلا جدوى ـ من أجل « فتح افريقيا » (لصالح الحركة الاولمبية بالطبع) الذى شد ما كان متعلقا به الى نهاية عمله فى الحقل الاولمبى . وليس من نافلة القول اليوم ومنزلة الرياضة الافريقية على ما هى عليه ، ان نستشهد بصفحة من « مذكرات أولمبية » حيث يذكر المؤلف بالجهود التى قام بها فى هذا الاتجاه منذ العشرينات .

جاء فى الخطاب الذى اتجه به بياردى كوبرتان الى الملك فكتور ايمانويل فى افتتاح اجتماع اللجنة الاولمبية بالكابيتول ما يلى : « ربما يبدو من السابق لأوانه ان نركز فى **قارة متخلفة عن الركب** وضمن شعوب لم تزل محرومة من الثقافة الأولية ، مبدأ المقابلات الرياضية ـ كما يبدو من قبيل الغرور المحض ان نتوقع من جراء هذا الامتداد مددا كفيلا بتعجيل **سير الحضارة** فى تلك البقاع . لنفكر مع ذلك فيما **يعذب الروح الافريقية** . هناك قوى متروكة غير مستغلة ـ كسل فردى وضرب من الحاجة الجماعية الى الفعل ـ **ألف حقد وألف غيرة** من الانسان الابيض ، مع الرغبة فى تقليده ومشاركته امتيازاته ـ هموم

متناقضة تدفع الى الانضباط والى الامتناع عنه – والبروز المفاجىء للعنف القديم المتوارث ، وسط نعومة عيش لا تخلو من السحر (1) .

تلك سمات – من بين السمات الاخرى – لهذه الاجناس التى تتطلع اليها اجيالنا الجديدة التى تلقت من الرياضة منافع كبيرة فقد زادت من صلابة اجسامهم وبعثت فيهم لذة الانشراح الناشىء عن النشاطات العضلية وشيئا منّ ذلك الاستسلام الرصين ، استسلام الكائنات النشيطة عندما تفرغ من بذل الجهد ، ولئن قوت الرياضة الجسم فهى تبعث فيه ايضا الطمأنينة والراحة. انها تستطيع ان تنشىء النظام وان تشحذ الفكر شريطة ان تبقى وسيلة والا تصبح غاية . فعلينا اذن الا نتردد فى اعطاء افريقيا حظها منها ، خاصة وانه قد وفد علينا نواب مفوضون اكفاء للتباحث معنا فى هذا الامر » .

ويضيف بيار دى كوبرتان : « وبالفعل ، التأمت على هامش دورة اللجنة الاولمبية الدولية جلسات اللجنة الاستشارية التى شارك فيها الى جانب ممثل عن الوزارة الايطالية للمستعمرات ، مندوبون عن الجزائر والمغرب والايالة التونسية وكذلك العقيد « سى » SEE الذى حمل رسالة خاصة من الماريشال ليوتى ، المقيم العام آنذاك (بالمغرب) وكان الكونت (دى بنها – قارسا) مكلفا بتمثيل بلاده فى تلك اللجنة . انى لا اود الدخول فى تفاصيل المداولات ، ولكنى أقول على الفور حتى لا أضطر للعودة الى الموضوع ، ماذا كان مصير المشروع ، وهو مصير وقتى على الاقل ، فانا مقتنع بأن المخطط سيراجع ، ويتضمن المشروع اقامة « ألعاب افريقية » مرة كل سنتين باطراف القارة الضخمة ، يكون برنامجها بسيطا فى البداية ، ويكتسى بالطبع صبغة اقليمية بحتة . وكان بودى ان تكون تلك الالعاب خاصة بالاهالى ، ولكن فضلت اللجنة ان تضاف اليها مسابقات خاصة بالمعمرين الذين اقاموا سنتين بالبلد المعنى (2) .

انها وجهة نظر وجيهة بالتأكيد ولكنها تكبل عملية الانطلاق . وكانت المدن المتفق على صلاحيتها لاقامة الالعاب الاولى هى : تونس ، الرباط ، الدار

(1) نترك – طبعا – مسؤولية بعض هذه الاحكام القيمية لصاحبها من دون ان نشاطره الرأى فيها .

(2) نلاحظ النزعة الاستعمارية التى حالت دون تجسيم شخصية الرياضة الافريقية وقوميتها .

البيضاء ، داكار ، بالنسبة الى افريقيا الفرنسية ، وطرابلس وبنغازي وأسمرا بالنسبة الى الممتلكات الايطالية ، وليبرفيل بالكنغو البلجيكي (1) ولوندا وسوماك بالنسبة الى افريقيا البرتغالية . والكاب ونيروبي بالنسبة الى جنوب افريقيا .

ولقد اخطأت اذ فكرت (وحملت اللجنة الاولمبية الدولية على مشاطرتي رأيي) في انه من المناسب ان ندشن الالعاب بصورة أكثر أبهة واعتبارا ، سنة 1925 بالجزائر العاصمة وقد كان لهذا القرار في البداية صدى بالجزائر ، فاهتم بالامر السيد « ستيغ » STEEG الحاكم العام آنذاك ، ولكنه لم يلبث أن لقي معارضة رهيبة ، خاصة وانها لم تكن واضحة ولا محدودة . كان السعي يتجه بالخصوص الى اضاعة الوقت وفل العزائم الطيبة . لقد وجدت منافسات قد تكون شخصية ، ولكنها في جميع الاحوال ادارية . ولقد تقرر فيما بعد تأجيل التدشين الى سنة 1929 وتعويض الجزائر بالاسكندرية . وكانت الاستعدادات ضخمة وتم تشييد ملعب رائع جدا . وقد سخر زميلنا بمصر « أ. بولاناكي » A. BOLANACHI جهوده لهذا المشروع بحمية وسخاء دعمتهما كفاءته المعترف بها من قبل الجميع ... وفي آخر لحظة ضاعت سدى كل المجهودات المبذولة واضطر الملك فؤاد الى افتتاح ملعب الاسكندرية بطريقة محتشمة وفي نطاق محلي بحت بسبب مناورة سياسية دبرتها انجلترا وانضمت اليها فيها فرنسا . ليس بوسعي ان اشرح هذه القضية المؤسفة ، اذ كنت قد غادرت اللجنة الدولية الاولمبية عندما انتهت التطورات الى هذا الحد . والواقع هو انه كان ثمة نزاع جوهري يتمثل في مكافحة الروح الاستعمارية لكل ميل نحو تحرير الأهالي ، وهو ميل مليء بالمخاطر في نظر قيادات البلدان الاستعمارية . ربما لم تكن الحجج المستعملة عديمة القيمة آنذاك ولكنها تعود الى ماض ولى وانقضى ، وهيهات ان يكون لها مفعول في المستقبل .

ان المجلة الاولمبية قد عالجت موضوع « دور الرياضة في البلدان المستعمرة » منذ صدور عددها المؤرخ في جانفي 1919 وقد ظننت بعد مضي عشرين سنة على ذلك ان الاذهان تطورت بشكل كاف يسمح بالانتقال الى التطبيق ولكنه كان يبدو ان القضية لم تنضج بعد ولا بد انها أوشكت الآن على ذلك ، واني باق على اعتقادي انه لن يمضي وقت طويل حتى تنظم افريقيا الرياضية نفسها بالرغم عن كل شيء . ولكن ربما بصورة أقل جودة مما لو تولت أروبا ، في

(1) دولة زايير اليوم .

الوقت المناسب ، مساعدة الحركة بنفسها . وعلى كل فقد بقى « الوسام الافريقى » الذى وضع تحت تصرف رؤساء المراكز ، والبعثات ليوزعوه سنويا تشجيعا للانشطة الرياضية فى حالة انتظار الى الآن وما لا يدرك كله لا يترك جله .

ان هذا الوسام يمثل من جهة زنجيا يرمى رمحا ومن الجهة الاخرى كتابة على القصب باللاتينية (نظرا الى ان افريقيا متعددة اللغات بالنسبة الى المعمرين والاهالى على السواء) تقول : « ان يعرف الانسان ذاته ، ان يتحكم فيها ، ان يتغلب عليها ، ذلك هو جمال الرياضة الخالد وتلك هى المطامح الاساسية للرياضى الحق وشروط نجاحه » .

واذا تركنا جانبا بعض الاحكام التقييمية حول النفسية الافريقية والتى هى قابلة للنقاش بطبيعة الحال ، فان بيار دى كوبرتان قد كان بلا ريب فى عمله ذلك سابقا لعصره ذا بصيرة نافذة ، لقد كان يهدف الى ضمان البقاء والمناعة للمؤسسة الاولمبية بتمكينها من الانتشار على الصعيد الدولى مساحة وعمقا . كان مقتنعا بوجوب السعى الى ملاقاة افريقيا . الى مساعدتها على التخلص من شياطينها على غرار القارات الاخرى ، والى تخليص البيض والسود على السواء من عقدهم ، ولو انه نجح فى مشروعه لما كانت الحركة الاولمبية واجهت الصعوبات التى تعترضها اليوم فى افريقيا . ولكن الابصار الحاسئة الحسيرة فى ذلك العهد ، حسب تعبير دى كوبرتان نفسه ، شاءت ان تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن .

ولا شك فى ان بعضهم قد اتهم بيار دى كوبرتان بممارسة السياسة ... ولقد كان من « السياسة » فعلا ان يطالب بأن تضاف الى تلك الالعاب مسابقات خاصة « بالمعمرين الذين اقاموا سنتين فى البلد » . ففى هذه المسألة كما هو الحال فى كثير غيرها ، لم يكن بالامكان اتخاذ موقف محايد . لقد كان هناك « سياستان » : احداهما تحترم الكيانات القومية وتساعد على ان تتولى الشعوب تقرير مصيرها ، والثانية تهدف الى دعم النظام الاستعمارى ، وتفوق قارة على أخرى . ان شرف بيار دى كوبرتان وعبقريته يكمنان فى انه احس بروح التاريخ وفى انه رسم وناضل من اجل سياسة مطابقة للمثل الاعلى الاولمبى وذات بعد حركى سخى . وشتان بين السياستين .

ان قراءة آثار بيار دى كوبرتان ، وعلى الاخص « مذكرات أولمبية » تمكن من تقييم رؤياه فيما يتعلق بعلاقات الرياضة بالسياسة ، ومن تقييم موقفه

الشجاع الايجابي امام رجال السياسة وخاصة الغنم الذى اكتسبه من ذلك لنصرة القضية الاولمبية .

ففى حديثه عن دورة برلين للجنة الاولمبية (1909) أكد على أمر اعتبره استثنائيا وهو ان « بيان الاعمال (لتلك الدورة) لم يثر فى تلك السنة مسألة لها مساس ما بالسياسة ! » .

بل أكثر من ذلك فقد كان بيار دى كوبرتان يسعى الى ايجاد تعاون مع الدول التى يمثلها ملوك ورؤساء جمهوريات ووزراء ... وقد كان يختار عدة اعضاء فى اللجنة الاولمبية الدولية من بين اعضاء الاسر المالكة ، والشخصيات السياسية ... والميثاق الاولمبى ينص فضلا عن ذلك على مشاركة رؤساء الدول فى المراسم الاولمبية العليا (مثل افتتاح الالعاب الاولمبية ذاتها) .

ولم يتردد بيار دى كوبرتان عند تعرضه للتطور الايجابي للفكر الرياضى بالسويد وخاصة ما حصل هناك من تنازلات فيما يتعلق ببرامج الجمباز ان عبر عن تقديره « لما قام به الملك والامراء من عمل نافع » اذ اقنعوا الاتحادات الرياضية المعنية بالامر بأن تقوم بتنازلات التزاما بالبرنامج الاولمبى لألعاب « ستكهولم » . ومعنى هذا ان رجال السياسة اعانوا مؤسس الألعاب الاولمبية العصرية على بعض الفنيين الرياضيين المتحجرين فى دائرة اختصاصاتهم .

ولم يخش كذلك ان يتعاون مع وزير الدولة « ايشن » EYCHEN رئيس الحكومة لتحضير دورة اللوكسمبورغ للجنة الاولمبية (1910) . ومن غريب الامور انه وجد لدى هذا السياسى تشجيعا ومعونة مكناه من التغلب على المقاومة والترددات التى ظهرت فى صفوف اللجنة الاولمبية الدولية نفسها .

ان الفقرة الواردة فى « مذكرات أولمبية » والتى يذكر فيها هذه الاحداث جديرة بأن تقرأ بامعان . ومما جاء فيها : « ألقى وزير الدولة « ايشن » كلمة الترحيب وأثنى عن اقتناع على تأسيس اللجنة الاولمبية الدولية التى كانت تتعرض الى انتقادات مسيرى الاتحادات الرياضية التى كانت اللجنة تضايق طموحاتها (كذا فى الكلمة) ، وكان « ايشن » الذى حظى مفهومه السياسى بتقدير كبير فى أوروبا ، ادرك واستحسن طرافة الدواليب الكفيلة بضمان الاستقلال التام للجنة الدفاع عن الحركة الاولمبية المجددة رغم كل العراقيل . كان ذلك بالنسبة الى تشجيعا ثمينا لتجاوز بعض التخوفات التى كانت تظهر احيانا فى صفوفنا » .

وأقتناعاً منه بأنه من الصعب ان نتجاهل المسؤولين السياسيين الساهرين على شؤون المجموعة داخل حدود اقطارهم وان نطلب اليهم في نفس الوقت المدد والمعونة ، يذكر بيار دى كوبرتان بشيء من التهكم موقف أحد زملائه الامريكان (كسبار ويتني) Gaspar Whitney الذى كان يطالب من سفارة الولايات المتحدة بباريس ، قبيل انعقاد ألعاب 1900 بالحصول من ادارة المعرض الدولي على التخلي عن الصبغة الرسمية وتسليم « المال والحرية » للاشخاص الذين اختارتهم اللجنة الدولية الاولمبية . ولئن اعرب عن اسفه للتدخلات الملحة التى كان يقوم بها بعض السياسيين من اجل قبول اعضاء جدد باللجنة الاولمبية الدولية فانه كان اذكى وأشد تعلقا بنجاح عمله الاولمبي من ان يمتنع عن اخذهم بعين الاعتبار . ولم يغفل فى مذكراته ان يسجل ان « الكونت تون فلتسينا » Tun. Valtessina حاجب فرنسوا جوزيف ، طالب باسم الامبراطور ، فى 14 افريل 1900 ان يلتحق باللجنة الاولمبية الدولية عضو نمساوى و « ذلك استعدادا لألعاب باريس » وقد قام الكنديون فى نفس العام بمسعى مماثل (1) .

ولقد يطول تعداد الامثلة والاستشهادات ، الدالة على اكساء الروابط الموجودة بين الحركة الاولمبية والسياسية صبغة نسبية وتجريدها من كل طابع تهويلي ، الدالة كذلك على الروح « السياسية » التى يتحلى بها دى كوبرتان من جهة أخرى . فهو لم يتردد من أجل تجديد الالعاب واكسابها الشمول ، وضمان اشعاعها ودوامها ، فى ان « يتشبث » بواقع عصره الاجتماعى والسياسى فسعى وتحصل على تعاون واسهام كل الذين يمسكون بزمام النفوذ ، اى بالسلطة التى تملك اتخاذ القرارات والنهوض عن طريق القانون والوسائل المالية والادارية ، ببرنامج تشجيعى للرياضة وباستراتيجية تربوية وتكوينية لصالح الشباب .

علينا اساسا ان نعرف ماذا نريد . واذا كان الامر لا يتعلق بمجرد تنظيم الالعاب مرة كل أربع سنوات ، بل بأن نواصل انجاز عمل بيار دى كوبرتان هذا الرجل المتشبع بالروح الانسانية والمربى العظيم وان نكون رواد اخلاق رياضية ورسل التفاهم الدولي والسلام فى العالم بفضل الرياضة ، فانه لا

(1) وهكذا فان تدخل الحكومات فى الشؤون الاولمبية ليس جديدا بشهادة بيار دى كوبرتان نفسه .

يجوز ان نتجاهل السياسة ، أعني ان نقطع صلتنا بالحياة وان نختار العزلة ... الرائعة .

ان التفاني في الحركة الاولمبية ، يتطلب منا علاوة على الاصداع بالعقيدة واقامة الاحتفالات الدورية ، عملا يوميا وعلى جميع المستويات ، قصد تعديل الانظمة التربوية في اتجاه استيعاب الاخلاق الاولمبية ولاثراء برامج تكوين الشباب بممارسة رياضية سليمة باعتبارها عامل تفتح لكل الطاقات البدنية والنفسية والاخلاقية لدى كل انسان وباعتبارها وسيلة تفاهم وصداقة بين الشعوب . ان الالعاب الاولمبية التي يضفي عليها دي كوبرتان اسم « الربيع البشري » ، تشكل هكذا تتويجا لعمل لا يعتريه الكلل طيلة أربع سنوات بلا انقطاع وانطلاقا لرباعية جديدة من الجهود النزيهة .

بل اني أؤكد انه ليس من صالح المسيرين الرياضيين والمسؤولين الاولمبيين ان يقابل رجال السياسة سير الرياضة ببلدانهم باللامبالاة .

فلقد عاني بالفعل هؤلاء المسيرون كثيرا مما احسوا به من عزلة عندما سعوا الى انجاز مخطط تكوين وتربية رياضية لفائدة الشباب . فالمجهودات الفردية التي قد يبادر بها بعض الاغنياء الولعين بالرياضة وتطوع بعض ذوي النوايا الطيبة ، عدا بعض الاستثناءات ، قد نقصت فعاليتها ولم تعد كافية وحدها . ان انجاز جهاز أساسي رياضي عصري يطابق المقتضيات الفنية المتزايدة للاتحادات الدولية يتطلب تعبئة وسائل مالية وبشرية تند عن طوق المسيرين الذين يتجندون على قاعدة العمل التطوعي وليس لهم ما يقدمون للرياضة سوى أوقات فراغهم المتناقصة بحكم الحياة العصرية وشغفهم الصادق بشؤون الشباب .

ان ما كان كافيا قبل ربع قرن ، لم يعد اليوم يفي بالحاجة فينبغي لنا اذن ، وعلى غرار دي كوبرتان ، اثارة حساسية وحماس المسؤولين الحكوميين والبلديين والنواب ، والهياكل الاجتماعية والاقتصادية والمنظمات الحكومية الدولية ، وكذلك اقناعهم بأن الحركة الاولمبية ليست نظاما باطنيا ولا ناديا مغلقا ، بل هي فلسفة انسانية ومفهوم تربوي عصري يرميان الى اسعاد الشباب ويتجاوزان النزاعات والانانيات الفردية والجماعية ويستأصلان الجذور القديمة لشياطين الحقد والحرب والشر ، ويكافحان التعصب والتطرف القومي .

ولنا قدوة في بيار دي كوبرتان مرة أخرى ، ففي مواجهة ما كان يعتقده في بداية الثلاثينات تصاعدا للاخطار التي تتهدد في نظره النهوض الرياضي

و « فتوحات حركة نسائية عادلة » – هي حسب تعبيره ، فوضى التعليم ، والاخلاق المزقة ، والشهوانية المرضية والجبن او حسب عبارة دي كوبرتان ذاتها نرجسية الاولياء – لم يكتف بالتشكي والنحيب في صلب اللجنة الاولمبية الدولية أو في الاجتماعات الخاصة .

بل انه اضافة الى الاتصالات التي كان يقوم بها في شجاعة ومثابرة مع المسؤولين السياسيين ، في الاقطار الاوروبية بالخصوص ، لم يتردد في ان يوجه سنة 1931 ، وهو في عقده السابع ، رسالة مفتوحة الى رئيس مجلس عصبة الامم للتشهير بالادواء المستفحلة في الشباب ، ولتحليل اسبابها ، مطالبا اياه ، باسم المثل الاعلى الاولمبي ، وباسم محبة الشباب وتقدم البشرية ، ان يقوم بعمل نشيط من أجل تطهير خلقي في مستوى الكرة الارضية .

وليس من نافلة القول في هذا السياق ان نلاحظ قلة الاهتمام الذي كانت تبديه ازاء الرياضة ، المنظمات الدولية وكذلك عدد كبير من الحكومات وذلك حتى الحرب العالمية الثانية .

فالكتاب (1) المشتمل على 1216 صفحة والذي نشرته « مؤسسة بروكينس » Brookings Institution سنة 1957 حول النشاطات الاجتماعية للامم المتحدة ، لم ترد فيه كلمة رياضة ولو مرة واحدة .

واذا اصبحت اليوم منظمة اليونسكو تبدي اهتماما بالرياضة ، أفليست هذه فرصة لفتح حوار مفيد معها ، ومن خلالها مع كل الوزراء أو سامي المسؤولين عن الشباب والرياضة والثقافة في اقطارهم بغية :

أ) مساعدتهم على التعرف بصورة اجدى على الحركة الاولمبية ودعمها من أجل مزيد من خدمة الشباب في اقطارهم ، واحترام الميثاق الاولمبي .

ب) مطالبتهم بالنهوض بالرياضة في المدرسة والجامعة ، ليس فقط لتكوين اجسام سليمة بل كذلك لتقوية سجايا الشباب ولتنمية ما يسميه دي كوبرتان العضلية الاخلاقية للانسان . ولقد وجد مؤلف « البيداغوجيا الرياضية » تعابير رائعة للتأثير في العقول اذ يقول مثلا: « ان الكلمة الاولى والاخيرة للبيداغوجيا الرياضية تنحصر في اثارة او تيسير عملية التقوية المعنوية بواسطة التقوية البدنية ، تقوية الروح بواسطة تقوية الجسم » . ويذكر دي كوبرتان كلمة الصلب للتعبير عن قوة الروح والبدن ويؤكد ، أنه يجب

---

(1) الامم المتحدة والنهوض بالرفاه العام .

أن نجعل من كل شاب « رجلا من برنز » قصد اعداد الجسم وسجايا النفس لخوض « معارك الحياة » وتعليم الانسان احترام نظام اختاره عن طواعية ، وكبح غرائزه ، والتحكم فى ذاته . ويضيف قائلا : « اذا كانت الرياضة من خلال بيداغوجيتها قد جعلت للجسم كتفين عريضتين ، فذلك ليتمكن أيضا من حمل همومه ، واذا كانت قد جعلت له عضلات متينة ، فذلك للسيطرة على اعصابه وجعله سيد أمره » .

ج) ادخال او تعميم الرياضة فى أماكن الشغل كنشاط معوض ومرفه ، والاسهام بهذه الطريقة فى فك استلاب الانسان ومساعدته على تحسين عيشه.

د) الكفاح بفضل المعدات المتوفرة للسلطة السياسية ، ضد الجشع التجارى والشوفينية والتعصب والمنشطات المصطنعة التى تفسد صحة الشباب بصورة قد لا يرجى لها شفاء .

هـ) بناء الملاعب ، والمسابح ، وقاعات الرياضة ، والمراكز المهوأة ، وتهيئة مخيمات للشباب ... وتقوية هذا الاستثمار فى الامد المتوسط وهو ذو مردود مواز إن لم يكن أوفر من مردود تهيئة الطرقات وبناء الجسور واحياء الاراضى ، وهو على كل حال أكبر نفعا وأقل ضررا من ملايين المليارات التى تنفق سنويا لشراء الاسلحة .

وهكذا ، فلنتصور ولنضع حيز الانجاز تعاونا ايجابيا مثمرا فى خدمة شباب العالم عوضا عن تجاهل المسؤولين أو معارضتهم وعوضا عن التنديد بتصاعد النزاعات القومية والتظاهر بالاعتقاد بأن الحل يكمن فى حذف الاناشيد الرسمية أو إزاحة الرايات عن الملاعب . فلنميز بين الوطنية وهو شعور نبيل وشرعى ينبغى تشجيعه والرفع من شأنه ، وبين التحيز القومى الذى هو بمثابة انحراف مرضى وعبثى للوطنية ، ولنشجع الشعور الاول ولنجتث جذور الثانى بالاشتراك مع كل السلط المسؤولة وبكل الوسائل وفى مقدمتها التربية المدرسية وأدوات الاتصال الجماهيرى التى تراقبها الحكومات أو القوى الاقتصادية فى معظم الاقطار .

واذا أردنا القيام بعمل ايجابى ومفيد لاشعاع الحركة الاولمبية فانه ينبغى ان لا نتجاهل السياسة لان السياسة لن تتجاهلنا .

ولهذا الغرض ينبغى ان تكون لنا سياسة أولمبية نعمل بلا انقطاع على انعاشها ومراجعتها وجعلها ملائمة لمقتضيات عصرنا ، وذلك مع الحرص على

ابقائها وفية لأسسها ومبادئها المقدسة . فلنضبط اذن هذه السياسة بوضوح ولنقر العزم على الدفاع عنها .

واذا كان لا بد من مقاومة السياسة ، فانه ينبغي ان نقف ضد سياسة المدسوسين على السياسة الذين يحاولون استغلال الرياضة لتدعيم مراكزهم ، واستخدام هيبة الألعاب الاولمبية والبطولات القومية والدولية لابراز مزايا انظمتهم واشباع اهوائهم .

ان تدخل هؤلاء السحرة اللاعبين بالنار لا يماثله سوى جهلهم بالرياضة والاحتقار الذى يكنونه للشباب بآستغلالهم لغايات أخرى لا تمت الى الرياضة ولا الى الاخلاق بسبب !

وان هذا لحجة أخرى للمبادرة والسير قدما حتى نستميل الشباب الى المثل الاعلى الاولمبى ونشهد الرأى العام على ذلك .

ان بعض نذراء الشؤم لا ينفكون يذكرون بالصعوبات ، وحتى بالازمات التى تتخبط فيها الحركة الاولمبية . وهذا ليس بالامر الجديد . ان دى كوبرتان نفسه قد تحدث عن هؤلاء المتكهنين بالعواقب السيئة والذين لا يترددون فى القول عند كل دورة أولمبية بانها هى الاخيرة . ويلاحظ : « ان العقل السليم ـ اذا انعدم العلم ـ يكفى لمعرفة ان الالعاب القديمة لم تسلم من الحوادث المؤسفة ومن الفترات الباهتة ومن هجومات قام بها خصوم الداء . لقد عرفت أولمبيا الحظ العاثر ولكن الحركة الاولمبية تجاوزت كل ذلك بدون ان تضمحل . وعلى هذا النحو ستتطور الحركة الاولمبية الجديدة . ان الالعاب لها على سابقاتها تفوق مزدوج : طابعها العالمى وحركية الاحتفال بها فهى اذن أكثر مرونة وقوة . لقد حفت بها بعض المخاطر فى البداية فقط . اما الآن فان نسغها اغزر من أن يجف » .

ان ثقة بيار دى كوبرتان بمستقبل الالعاب الاولمبية ستثبت صحتها اذا ما استلهم المريدون وحاملو المشعل المتعاقبون من آثار هذا المصلح وطرق عمله بتكييفها مع معطيات عالم اليوم ومتطلبات شباب الغد .

واذ يتعلق الامر بروابط الحركة الاولمبية بالسياسة ، فان الاهم بالنسبة الينا معشر المربين والمسيرين الرياضيين الذين يدفعنا ـ ويجمعنا ـ مثل أعلى وحب الشباب والتفانى فى بناء عالم قابل للتحسين باستمرار ويستطاب فيه العيش أكثر من ذى قبل ـ هو ان نعرف ماذا نريد ، اى ان تكون لنا عقيدتنا الرياضية وان ندافع عنها وان نمكنها من الاشعاع وان نتعاون من أجل ذلك مع كل الذين تتوفر لديهم وسائل مباشرتها بفضل السلطة التى يمسكون بها.

المهم هو ان تتوفر للمسيرين الرياضيين حيثما كانوا رباطة الجأش وقوة النفس وان يتمكنوا بفضل مواهبهم الشخصية وسلوكهم الاخلاقي واشعاعهم، فرض أنفسهم والقدرة على الاقناع وان يقووا على جلب الآخرين لنصرة قضيتهم .

المهم ايضا هو أن يتجنبوا التشبث ببعض القواعد التي يعتبرونها مقدسة أو الدفاع عن أوضاع يدينها التاريخ والتقدم والمعاصرة وذلك بدعوى التبرؤ من التدخلات السياسية وغيرها .

فالدفاع عن الحركة الاولمبية والسهر على استقلال المنظمات الرياضية شيء ، ونشر الاخلاق الرياضية والحفاظ على وحدة الحركة بقوتنا الخلقية دون سواها شيء آخر . وان القوانين وحدها لا تكفي اذ ان مستوى الرجال وشخصيتهم وتصورهم للاشياء أكثر من ذلك أهمية اذ ان الرجال بامكانهم ان يغيروا القوانين وان يجعلوها ملائمة ولكن النصوص لا يمكن ان تحيا ولا ان تدخل حيز التطبيق بصفة تفي بالغرض الا بفضل اخلاص الرجال وذكائهم .

ان هذا العرض لا يطمح الى استخلاص نتيجة نهائية وهو بالاحرى لا يطمح الى تحديد وصفة شافية اطلاقا لتجاوز تداخل السياسة في الرياضة ، انه بحث دائب يكون فيه كل اعتراض مسألة قائمة الذات ، وانه مجهود يهدف الى اقرار جدلية بين مثل أعلى سخي تعمل على بلوغه وبين واقع متغير باستمرار .

وبالتأكيد ليس في هذا الاخذ والرد راحة . فان بعضهم يفضل طمأنينة الافكار العامة والاراء الجاهزة ، بينما يبسط الآخرون على الملأ واقعيتهم التي هي تخل وفرار امام معطيات الواقع القاسية والمحرجة .

ان هذا التوازن المتغير يمكن ان يتوصل اليه من يؤثرون التوليد السقراطي على الهرير المخدر للاحكام المسبقة والافكار الموروثة . ان شعار دي كوبرتان الذي يوصي « بالنظر الى بعيد ، والتحدث بصراحة ، والعمل بحزم » يبدو لي قاعدة ذهبية ينبغي ان يتذكرها كل الرياضيين لمواجهة هذه المشاكل ولاتخاذ موقف من السياسة والسياسيين . فقد يكون ذلك من ... حسن السياسة !

محمد مزالي

الرئيس المساعد للجنة الأولمبية الدولية
ورئيس اللجنة الأولمبية التونسية
(جويلية 1977)

من ديوان «شواطئ العطش»

تعبرني الصحراء فيلهث الجفاف في حلقي..
تعبرني الضفاف فيلهث في الارتواء حلقي..
وبين الجفاف والارتواء يقف العطش حاجزا دوني والضياع في صحراء الغربة .. دوني والغرق في خضم اللاتواجد .. وما دام العطش الدائم فلن ينضب نبض العبور الى الحياة .

* * *

① شباب الاتعاب معبودي ..

شربتني نزوة العمر .. وأتعاب شبابي ..
فارتوت .. هل يرتوى العطشان من غيث السراب !؟
مقلتي في غابة الأهداب ، غامت بضباب العشق .. يا ويح العشيق !
شفتي في شاطيء النهدين غصت في مضيق الصدر .. ما أحلى المضيق!
ذا الهوى العطشان قد برد بالحب التهابي ..
فلماذا لم أزل أحمل جثمان لهيبي ؟ دائم الشوق الى حمل عذابي ؟
آه .. ما اكثر أتعابي .! واتعاب شبابي .!
بصماتي .. هذه آثارها لما تزل في كل باب .. حفرت حتى على صهوة بابي .!
غير أني، قابعا في الشاطيء العطشان ما زلت.. أنا العطشان والشوق شرابي

* * *

② غراب ، وأعشقه تائها ..

خبئى يا امرأة حسناء كأسى خلف ما يخرجنى من خلجاتى ..
فهى لن تقضى نحبى..حين يشتد انتحاب العطش الدائم فى ارحام ذاتى!
واسكبى للحب قلبى فى أباريق الهوى .. وانتظرى القادم لا بد .. سياتـى ..
فاسكبى للحب قلبى .. واحذرى أن تسلبى منى شرايين انسكابى !
وانشرينى تحت شمس العرى عرسا ، فيه استولى على حزن البشر..
آه .. ما أحلى تعرى الشمس عرسا للقمر !!
لانسكاب الضوء فى الليل ! خيوطا فوق نول يخصب الحب لتجديد الصور .!

بلى الثوب .. تهرى .. بعد أن هرى إهابى ..
فلبست القلب عمرا .. يا له من كسوة تسجننى خارج اثواب ارتيابى!
وتعرينى لنفسى تحت شمس الانسحاب .
ذاب منى القشر تحت العرى .. وانصب مذابى ..
فى سفوح العمر .. فلتصغى الى صوت انصبابى ..
أم على اذنك جسر يصل الأمس ببابى .؟
فاخرجى يا امرأة حسناء من سجن ترابى .
فاذا عدت غدا لن تدخلى .. غصت رحابى ..
فلماذا تسألينى ؟ من بهم غصت رحابى .؟
احذرى كالرمل يا .. الحسناء . كالرمل جوابى .
ربما يخلق فى ذهنك موج الاضطراب ..
فاستريحى خلف باب الليل يا حسناء كفى عن عتابى ..
أنا أطردتك منى .. كلمة كالضوء ، حرفا كالعباب ..
ثم أحرقت كتابى .
وارتكبت الذنب فى طردك اذ شئت ارتكابى ..
فاعبرى وجهى الى الصحراء فالرى مصابى ..
لم يعد خلفى حبيب آزف ، كيف أحابى .؟

أأمنيك بليل مشمس فوق الروابى .؟
والأماني اليوم مفتاح لمزلاج عذابى ..؟
وأنا فى مأتم الشمس عريس باكتئابى .؟
صادري عمري .. دعيني تائها بين صحابى ..
كيف لا ..؟ والتيه يا حسناء رجع لشبابى .
وانا فى غربتى شيبت بالتيه غرابى ..
فحنا الليل على .. الصمت يحنو حين يحنيني انكبابى ..
ولغير العطش الدائم لن تحنو رقابى .

* * *

③ **التطهير بالنار ..**

فاخرجى أيتها الحسناء من عرى شبابى ..
أخرجى من شارعى .. لا تمكثى تحت سحابى ..
ربما أمطر غيمى .. أنت من غير ثيابى ..

فاذهبى وفق غروبى .. واتركينى فى اغترابى ..
غربتى سر وجودى .. ووجودى فى ذهابى ..
ما الذى عاد بك الليلة تبغين اقترابى .؟
وغدى يحبو .. وايامى على ظهرى انتفاضات شعوب ..
عطشى يربو .. واتعابى على قلبى تضاريس صباح، ورواب للغروب..
وارتوائى فى ضفافى بجفافى نبع خصب لانسيابى .
طال شرحى .. لم يعد يكفيك غير الاقتضاب ..
فأنا فى العطش الدائم بردت التهابى .
بعد ان طهرت بالنيران تبرى .. وترابى .

تونس / زاوية المقايز / 27 / 5 / 1971

مُقوّمات الشخصيّة التونسيّة

بقلم : أحمد خالد

أفضل أن يكون حديثي إليكم عن مقومات الشخصية لا الذاتية التونسية (1) لشيوع استعمال اللفظ الاول في الاصطلاح ولصوقه بمعنى الكلمة الاعجمية Personnalité وإن كانت الذاتية المشتقة من الذات Ego تدل في الاصطلاح الفلسفي على أعمق ما في النفس البشرية .

وإذا قلنا الشخصية التونسية فانا نعني انتسابنا الى أمة تسمى الأمة التونسية المعتزة بكيانها المستندة الى مقومات خاصة .

وعبارة مقوم « جمعها مقومات » .Fondement تعني ما تقوم عليه الشخصية التونسية من أسس وهياكل تميزها عن الشخصيات في المجتمعات الاخرى وتكون القاسم المشترك le dénominateur commun بين أفراد الشعب التونسي وتظهر في سلوك معين وفي مظهر أسلوب معين من الحياة بمقتضاه ينسج كل فرد نمط حياته ، على اختلاف أمزجة الافراد وأصنافهم وتكوينهم ومستويات عيشهم .

وإذا قلنا الشخصية التونسية فذلك يعني الشخصية القاعدية La personnalité de base، بالاحرى الركيزة النفسانية المشتركة بين المجموعة البشرية في الوطن التونسي .

وعلى الشخصية القاعدية تتركب السمات الفردية في المجتمع الواحد . ومن أهم خصائص الشخصية القاعدية دوامها عبر الاجيال . فبها يرتبط الماضي بالحاضر والمستقبل في مد مسترسل ويكون دوام الذات التاريخية وامتدادها عبر العصور la Continuité de l'être historique .

---

(1) هذا نص الدراسة التي ألقاها الاستاذ أحمد خالد في ملتقى المعلمين بسوسة في 9 أوت 1976 .

من هذا التمكن والدوام التاريخيين نفهم ارتباط الشخصية بالثقافة والحضارة • بديهي أن العلاقة تفاعلية بين الشخصية والثقافة • فان كانت الشخصية تتأثر بالثقافة ، فان الثقافة تعكس صورة الشخصية ، وثمت علم للاجناس يسمى الانتروبولوجيا الثقافية L'anthropologie Culturelle ويهتم ذلك العلم بدراسة الثقافة الخاصة بمجتمع ما ، ويتجه عادة الى كشف سلوك أفراد الذين تلقوا تلك الثقافة وجسموها .

فما الثقافة وهل ثمت فرق بينها وبين الحضارة ؟

الثقافة فى أصل اللغة من ثقف العود بمعنى سواه ليطاوعه عند الطعن كالرمح للمحارب •

واذا انتقلنا من هذا الاصل علمنا أن جوهر الثقافة هو الحذق والاستقامة •

واذا وسعنا مفهومها وتذكرنا الانسان بيده وعقله ولسانه وذوقه وروحه فتكون الثقافة جميع النظم والهياكل والتقاليد والملكات الجسمانية والعقلانية واللسانية والذوقية الجمالية والروحانية التى بها يستقيم الانسان ويمهر ويتآلف مع أخيه الانسان فى بيئته ووطنه أولا ثم على الصعيد العالمى ثانيا وربما مرورا بمجموعة من الشعوب المتشابهة •

فتلك الملكات التى ذكرنا اذا استقرت فى الانسان كانت « بمثابة الجبلة والفطرة » على حد قول ابن خلدون •

والثقافة فى صراع دائم بين الزيف والحقيقة • فاذا فقدت أصالتها أو بتعبير أوضح سندها الصحيح مع الايام وبموجب حتمية التطور ، فترت وتيبست وتراجع عزها فكان ذلك وبالا على الشخصية فتضعف وتتميع •

أما الحضارة فهى كما عرف بها « ول ديورانت » فى موسوعته « قصة الحضارة » نظام اجتماعى يعين الانسان على الزيادة فى إنتاجه الثقافى ، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة هى الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ، وهى تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق لان الانسان اذا أمن من الخوف ، تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الابداع والانشاء ، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقه الى فهم الحياة وازدهارها » .

فالحضارة حافز للثقافة وهي أشمل منها إذ في الامكان أن تحتوي العديد من الثقافات كشأن الحضارة الاروبية التي تشترك فيها عدة ثقافات كالفرنسية والالمانية والانكليزية وكشأن الحضارة العربية الاسلامية التي طبعت عديدا من الأمم والشعوب كالفارسية والهندية والافريقية والعراقية والمغربية · فمنها من أثرت فيه تلك الحضارة وتمسك بلغته كالشعب الايراني ومنها من هضم تلك الحضارة ونهض بها بواسطة اللغة العربية كالامة التونسية ·

وإذا أخذنا بهذا فيصبح التسليم بوجود ثقافة تونسية متميزة بشخصيتها في خصائصها ونوعيتها عن الثقافات العربية والاسلامية الاخرى · ولا ضير في ذلك التميز لعروبة تونس وإسلامها ، لأن إزدهار الأمة العربية الكبرى والأمة الاسلامية الكبرى لا يتحقق إلا بتقاوي أجزائهما وبروز شخصية كل شعب على حدة لا بذوبانها إذ بفوارقها الابداعية الايجابية لا السلبية تتكامل تلك الشعوب ويثرى بعضها بعضا ، وتتلاقح قرائح رجالها وعبقرياتهم فيتواجدون على وجه الحقيقة والواقع ويتجاوزون مجرد وحدة الامل .

تجلى الحكم ان ارتباط الشخصية بالثقافة ظاهرة أساسية إذ تتحكم الثقافة قبل غيرها من العوامل الاخرى في استمرارية المجتمعات فلا يكتب للمجتمعات الدوام والازدهار اذا فقدت ثقافتها وقصرت نظرتها في الحياة على المادة والاقتصاد وإن كان الانسان في حاجة الى ما يقوته لأن « الله سبحانه خلقه وركبه على صورة لا تصلح حياتها وبقاؤها الا بغذاء » كما يقول ابن خلدون في تعليل ضرورة الاجتماع الانساني ·

ليس صدفة ولا عفوية سعي حكومة كندا في الحفاظ على ثقافات الجاليات المختلفة النازحة المقيمة بتلك القارة بالرغم من أن أولئك ما هاجروا بحثا عن مجتمع مطابق لمجتمعهم الاصلي وانما رغبوا في وافر الرزق وميسوره فكان لا بد لحكومة كندا من الحفاظ على ثقافات الجاليات المختلفة لفقدان الثقافة العريقة الموحدة لشتات الجاليات ·

إن الاقتصاد على أهميته وحاجة الانسان اليه لتتم به حياته ـ لا يكون وحده قوام المجتمع إذ لا بد لهذا من معايير عقلانية وروحانية وذوقية لا توفرها غير الثقافة وبدونها لا يستقيم المجتمع · إلا أن الاقتصاد مرتبط أيضا ارتباطا تفاعليا بالثقافة فهي تتأثر به وتؤثر فيه .

ألا ترى أن لظهور الثقافة الاسلامية المتجسمة أولا في القرآن خلفية اقتصادية فقد حدث في مكة قبل ظهور الاسلام بنصف قرن تغير اقتصادي هام قوي قبيل فجر الاسلام وظهور الدعوة المحمدية ·

تمثل ذلك التغير فى نمو التجارة وازدهارها مما جعل مكة مركز معاملات تجارية معقدة . إلا أن ذلك التحول التجارى الهام من النمط البدوى الريفى بما فيه من بساطة وعفوية الى النمط التجارى المعقد لم يواكبه قبل ظهور الاسلام تطور ثقافى مجانس لنوعية الحياة الجديدة ، ومقوم لأخطائها إذ ظل العرب الرحل القاطنون فى البوادى محافظين على بعض التصرفات الجاهلية التى لم تعد ملائمة للمجتمع التجارى الجديد كالغزو والغارة ، فى حين انهار فى مكة وفى الحواضر الاخرى النظام القبلى القائم على التناصر بين أفراد القبيلة ، فحلت الفردية محل التضامن القبلى فى مجتمع تجارى جديد لا يراعى فيه الافراد الا مصالحهم الخاصة . وقد يتخالفون على العشيرة وذوى القربى والقبيلة حفاظا على مصالحهم الخاصة فانهارت مبادىء التضامن القبلى أو كادت تنهار فى المعاملات والسلوك ولكنها ظلت مع ذلك عالقة بالاذهان فتعسف الاقوياء على ضعفاء الحال فى المجتمع القرشى الجديد أمثال اليتامى والارامل وتغاضى القوى والموسر عن الرفق بالضعيف والمحتاج كما كان يرعاهما رئيس القبيلة فحدث اختلال فى التوازن الاجتماعى Il y a une repture de l'équilibre socia وفى إمكانك تعليل عقلية الموسر المكى بأنه وجد نفسه فى وضع اقتصادى جديد لا يجانس النظام الاجتماعى البدوى ومثله .

ففى النظام الاجتماعى القبلى كان الرئيس يأخذ ربع الغنيمة بعد الغزو والغارة فيتمكن من إعانة الضعيف والمحتاج فى العشيرة .

أما التاجر المكى الموسر فى وضعه الاقتصادى الجديد فقد اكتسب ثروته بتدبيره لا من الغارة والنهب ، فما رضى بالسنة الاخلاقية القبلية المستوجبة منه نصرة أخيه ظالما أو مظلوما وإعانة اليتامى والمساكين .

ولم يكن بد أمام هذا الخلل فى التوازن الاجتماعى قبيل الاسلام من ظهور ثقافة جديدة يستقيم بها المجتمع ويتآلف أفراده قويهم وضعيفهم ، فكان ظهور الاسلام وتنزل الآيات الاولى من القرآن وإنها لآيات وثيقة الصلة بالوضع الاقتصادى والاجتماعى الجديد فى مكة .

ففى تلك الآيات المكية الاولى دعوة الى التضامن الاجتماعى بين مختلف الاصناف الاجتماعية والى التعاون على شؤون الحياة والى الرفق بضعاف الحال والى الحد من الانانية والفردية المتفشيتين فى المكيين بعد انتقالهم من بساطة الحياة القبلية الى تعقد الحياة التجارية ، فكانت الدعوة الاسلامية متجهة الى

تأليف قلوب العرب ضمن أمة واحدة وحول معتقد دينى موحد وقيم أخلاقية متجـانسة ٠

وهل أدل على ما ذكرنا من الآيات المكية التالية :

ـ « ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده » ـ ٠

(ثلاث آيات من سورة الهمزة المكية) ٠

ـ « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعـام المسكيـن وتأكلـون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما » ـ (وهى أربع آيات من سورة الفجر المكيـة) ٠

ـ وفى الآيات التالية من سورة الضحى المكية خطاب للرسول عليه السلام ولمن شرح الله صدره للاسلام : « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر٠ وأما بنعمة ربك فحدث » ـ ٠

وأمثال تلك الآيات الحاثة على التمكن من الثقافة الاخلاقية الاسـلامية التى تعوض العصبية القبلية بالاخوة الاسلامية ، ممـا يكثـر بخـاصة فى السـور المكيـة ٠

ففيها يوازى القرآن بين تصورين للحياة ومذهبين فى السلوك ، مـذهب المسلم المتواضع لله البار بأخيه الانسان ، ومذهب المشرك المتكبر بماله المتعالى عن ذكر الله المتعسف لاخيه الانسان ٠ فكان موقف البارى تعالى منهما واضحا فى هذه الآيات من سورة الليل المكية :

ـ « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ٠ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » ـ ٠

وأمثال تلك الآيات شاهد على وجوب تحكم الثقافة بما فيها من قيم أخلاقية ومبادىء سلوكية فى استمرارية المجتمع الذى يفقد دوامه طـال الزمـان أو قصر ـ اذا حصر المجتمع نظرته فى الحياة على الناحية الاقتصادية المتملصـة من كل اختيار نوعى لجملة من المعايير الثقافية والقيم الاخلاقية ٠

وبعد هذا فيمكن الجزم بأن الاسلام بمفاهيمه الاربعة العقيـدة والحضـارة والدستور الاجتماعى والامة من أخص خصائص الشخصية التونسية فلا غرو أن نجد منقذ الأمة التونسية من ذل التبعية الاستعمارية يركز عليه اهتمامه فى عديد المناسبات .

لكن هل يعني انتساب الشعب التونسي الى الامة الاسلامية ذوبانه فيها ؟ لا أبدا فلكل قطر إسلامي طابعه ومميزاته وللشعب التونسي شخصيته الاسلامية الطريفة ، فهو أمة على حدة ولنتساءل الآن :

• ما مفهوم الامة التونسية ؟

ما أمكن للشعب التونسي أن يصبح أمة على حدة إلا لانه أثبت نفسه كمجموعة تاريخية من الناس تتوفر فيهم شروط خمسة : أنهم يتكلمون لغة مشتركة هي اللغة العربية ولهم تاريخ مشترك وتراث نفسي مشترك ويعيشون على أرض واحدة ، ولهم مصالح اقتصادية مشتركة ·

ومع هذا فليست تلك الشروط نهائية بالنسبة الى بعض الشعوب التي لا تتوفر لها اللغة الواحدة وربما الارض الواحدة كبلجيكا والباكستان قبل انفصال بنغلاداش ·

والشعور بالامة هو ما يسمى بالقومية وقد تكون القومية متعصبة مستعلية فتلحق الضيم بالشعب والانسانية لتعاليها عنها باديولوجية خيالية تعسفية كالنازية في القومية الالمانية والصهيونية في القومية الاسرائيلية ·

ونوع ثان من القومية كالقومية التونسية سليم لانه متحفز للاستقلال السياسي والاقتصادي مناضل في سبيل التحرر من الاوهام ومن ذل التبعية دون تلفيق نظرية عرقية أو عنصرية ·

وما أمكن للشعب التونسي أن يصبح أمة إلا لاثباته استمرارية إرادة الحياة ضمن مجموعة مشتركة في العيش وفي الثقافة تواقة الى حكم نفسها بنفسها في أحلك حالات الاحتلال عبر العصور ـ ويظهر ذلك في الثورات المتعاقبة على الاجنبي المستبد بأمر الشعب التونسي من « جوغورتا » Gugurtha ملك نوميديا (تونس القديمة) الذي قاتل الرومان وغلب على أمره ومات سجينا في روما سنة 104 قبل الميلاد الى بورقيبة الذي قاوم الاستعمار الفرنسي بحذق ومهارة وخلص البلاد من ذل التبعية وما زال ـ أطال الله أنفاسه ـ يتمتع بثمرة كفاحه · وهو يعتبر نفسه « جوغورتا » ناجحا ·

لكن هل نسلم بأن الامة التونسية بمفهوم الاصطلاح الحديث موجودة منذ القديم ؟ إن إرادة العيش الجماعي المشترك موجودة باستمرار في الرقعة

المسماة تونس ولكنها ظلت قديما ارادة غامضة لا تبين إلا من حين لآخر في مد وجزر ، وتبرز كما قلنا في الثورات على الاجنبي المستبد بالبلاد كما تبرز في سمات الشخصية التونسية التي نتبينها من خلال التقاليد والعادات والمواقف والآثار الفنية المطبوعة بالطابع الافريقي المغربي كما في الفسيفساء المعروضة بمتحفي سوسة وباردو . فهي تتميز عن الفسيفساء البيزنطية المشرقية وعن الرومانية اللاتينية وإن كانت متصلة بتينك الحضارتين .

وتبرز الشخصية التونسية أيضا في عديد من الآثار الادبية كما في ديوان « اقتراح القريح واجتراح الجريح » لعلي الحصري القيرواني الضرير صاحب الموشح المشهور « يا ليل الصب » فقد كثر حنين علي الحصري من بلاد الغربة بسبتة في المغرب ومدن الاندلس الى القيروان موطنه الدريس بعد ان نزح عنه فارا بنفسه وعياله من المجازر التي أقامها الاعراب الهلاليون الزاحفون على إفريقية من الصعيد المصري بايعاز من الخليفة الفاطمي المستنصر ووزيره الحسن اليازوري اللذين ارتأيا الانتقام بجحافل الاعراب المخربين من المعز بن باديس الزيري الامير الافريقي التونسي الذي جرؤ على قطع الدعوة العبيدية ببلاده وأمر بتقتيل الشيعة والرجوع الى المذهب السني المتأصل في أهل البلاد .

وقد نكب علي الحصري في بلاد الغربة بموت ابنه عبد الغني فقوى فيه ذلك المصاب وغدر زوجته شعوره بالغربة فخاطب عبد الغني بمثل هذا الشعر وكان علي الحصري مقيما في الاندلس :

هـذا محل لا أحب حلوله والمحل أقصدني إليه وأشخصا
لولا رياح رياح لم أك أمتطي ذا الأخضر الطامي وذاك الأحوصا
وطن بغير غنى أحب إلى الفتى من غربة تغنيه إذ لا مخلصا

ويجهر الشاعر القيرواني بأنه ما غادر موطنه إلا اضطرارا فيناجي روح عبد الغني بقوله :

والقيروان حمى أبيك وما نأى إلا وربع القيروان دريس

ولا يتصور الشاعر التونسي عزا إلا في موطنه فيقول في رثاء القيروان بعد أن انقض عليها أعراب هلال وسليم وعاثوا في الضواحي والاطراف يفسدون ويخربون ويقتلون :

لا تنأ مبتغيا قوتا تعيش به ففي أحاديث من تهواه أقوات
ولا تقل تشمت الأعداء محتضرى إن اغترابك أيضا فيه إشمات
موت الكرام حياة فى مواطنهم فان هم اغتربوا ماتوا وما ماتوا
كنا وكان لنا فى ما مضى وطن لكنها أسهم الدنيا مصيبات
يا أهل ودى هل فى القرب من طمع فتشتفى بكم هذى الصبابات
أصبحت فى غربة لولا مكاتمتى بكتنى الأرض فيها والسماوات
أبعد أيامنا البيض التى سلفت تروقنى غدوات أو عشيات
ألا سقى الله أرض القيروان حيا كأنه عبراتى المستهلات
وكف عنها أكف المفسدين لها ولا عدتها من الخيرات عادات
فانها لدة الجناة تربتها مسكية حصاها جوهريات
إلا تكن فى رباها روضة أنف فانما أوجه الأحباب روضات
أو لا يكن نهر عذب يسيل بها فان أنهارها أيد كريمات ...

إن للمفردات « موطن » و « وطن » و « أوطان » و « قيروان » وقعا عاطفيا قويا فى نفس الشاعر التونسى على الحصرى القيرواني لكنه لا يبلغ مستوى الادراك القوى لمفهوم الوطن فى عصرنا الحاضر . فالكلمات التى يستعملها على الحصرى للتعبير عن انتمائه الى القيروان عاصمة إفريقية (تونس) تؤلف مستوى من الادراك الوطنى البسيط un patriotisme élémentaire الذى له قاعدة عاطفية بيولوجية ولكنها على كل حال تمثل رابطة تؤلف بين سكان هذه البلاد عصرئذ .

ما من شك فى أن اكتشاف الابعاد الوطنية بالمفهوم الحديث قد ظهرت بوادره فى القرن التاسع عشر بتونس .

فالى جانب استعمال لفظ أمة بمعنى الامة الاسلامية المنضوية تحت راية الخلافة العثمانية فانا نجد لفظ أمة مستعملا مثلا فى كتاب « أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » للوزير خير الدين وفى كتاب « إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان » لأحمد بن أبى الضياف بمعنى التخصيص فى قولهما : « عموم الأمة » و « قادة الأمة » و « حقوق الأمة » .

غير أن لفظ أمة ـ على ما فى استعماله عند الوزير خير الدين وأحمد بن أبى الضياف فى القرن التاسع عشر ـ من رغبة فى إبراز الشخصية

التونسية ، لم يتخلص آنذاك تماما من معنى تبعية الايالة التونسية للسلطان العثماني .

ألا ترى أن جميع المصلحين التونسيين في القرن التاسع عشر كسالم بوحاجب ومحمد السنوسي وبيرم الخامس وأحمد بن أبي الضياف وخير الدين قد اعتقدوا أن رد غائلة الاستعمار الاوروبي عن تونس رهين ارتباطها بالخلافة العثمانية رغم ما تبينوه من وهن أصحابها حتى سميت الامبراطورية العثمانية رجلا مريضا . فقد كتب خير الدين في مذكراته ما يلي :

« لقد كنت مؤمنا راسخ الايمان بأن المملكة التونسية ينبغي أن تجد من الروابط التي تربطها بالخلافة العثمانية أمنع حصن يصونها من أطماع الدول الاوروباوية المختلفة وعلى مر الزمن سواء أكنت مواطنا أم موظفا بسيطا أم وزيرا أكبر ـ فاني لم أنفك أؤكد حقوق تركيا على تونس وأنصح بايات تونس باقرار الروابط مع الامبراطورية العثمانية وتوطيدها » .

(أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لخير الدين ـ ط . الدار التونسية للنشر 1975 ـ ص 45) . وأني يتخلص لفظ أمة من معنى التبعية للسلطان العثماني في القرن التاسع عشر بتونس وقد ظل هذا التعلق بالوحدة الاسلامية تحت راية الخلافة العثمانية عالقا بأذهان التونسيين وزعمائهم في عشرينات القرن العشرين من حركة حزب الشباب التونسي بقيادة علي باش حامبة الى حركة الحزب الحر الدستوري قبل انشطاره بقيادة الشيخ عبد العزيز الثعالبي . وليس هذا مني اعتباطا اذ أستطيع أن أستدل عليه باستنطاق نصوص ذلك العصر . وهل أدل على امتداد الاتجاه الوحدوي الاسلامي والعثماني في حركة الشباب التونسي مما أكده علي باش حامبة في جريدة « التونسي » عندما قال :

« يظن بعضهم دائما إزعاجنا عندما يتحدث إلينا عن الجامعة الاسلامية Panislmisme والجامعة العثمانية Othomanisme كأننا أنكرنا في وقت ما وجودهما . لكن كل مسلم في التعريف به متمسك بالجامعة الاسلامية وإن من التفاهة تكرار تلك الحقيقة . فقد كان يظن فيما مضى ـ والحق يقال ـ أن الجامعة الاسلامية منظمة سرية منضبطة متمكنة من وسائل عمل ومعادية في اتجاهها لأروبا . لكن تلك الأسطورة البالية تلاشت اليوم وكل الناس يعلم أن الجامعة الاسلامية ما هي إلا شعور أخوي واسع أفضى الى الجامعة العثمانية فكانت له في آن مظهرا جليا .

خمسة قرون من الجهاد والفتوحات والعظمة أحاطت الأسرة العثمانية المالكة بهالة من الاكبار وأقرت سلطان إسطنبول خليفة فكان الوثاق الدينى القوى بين المسلمين رابطا بينهم وبين من اعتبروه حامل لواء الرسول وكانت القسطنطينية فى نظرهم عاصمة الاسلام ودار الخلافة ، إنها للمسلمين بمثابة روما للمسيحيين ، فالتونسيون نصراء الجامعة الاسلامية والأتراك ، ثم إنهم لا يكتمون ذاك الشعور وليس فيهم من عزم على الاعتقاد بأن النفوذ التركى تقلص من هذا القطر الى الأبد » .

فواضح إذن الاتجاه الاسلامى الوحدوى والعثمانى فى تفكير على باش حامبة وجماعته وإن وازى ذلك الاتجاه فى تفكير زعيم حزب الشباب التونسى اتجاه ثان قومى يظهر فى نفس المقال بجريدة « التونسى » سنة 1910 :

« لكن الجامعة الاسلامية والجامعة العثمانية ـ وهما من العلاقات الشعورية الصرفة ـ بعيدتان عن خدمة أى وحدة جنسية أو قوميات تنتمى للقرآن ...

لئن أكسبتنا التربية العصرية عقلية جديدة فليست أقل من هذه محافظتنا على ذاتيتنا » .

ولفظ Individualitè أى الشخصانية أو الذاتية يدل على إدراك ثان فى ذهن على باش حامبة لشخصيته التونسية وإن كان قد أنهى عمره باسطمبول وتقلد فيها مهام وزارية ووجد الوطن الثانى بعد تغريبه خارج وطنه الاول تونس عقب معركة الزلاج سنة 1911 ومخلفاتها فى سنة 1912 .

وتظهر سياسة على باش حامبة نحو « الجامعة الاسلامية » فى جريدة له أخرى سماها « الاتحاد الاسلامى » وقد كان مديرها وكان الشيخ الثعالبى رئيس تحريرها ووجدت الجامعة الاسلامية أو « الخلافة الاسلامية » تحت راية الخليفة العثمانى أنصارا فى الحزب الحر الدستورى الذى أسسه عبد العزيز الثعالبى ، وقد تأسست فى تونس لجنة الخلافة الاسلامية برئاسة أحد أقطاب الدستوريين القدامى أحمد توفيق المدنى ، وأعلنت بيعة الخلافة كما نقلت ذلك جريدة « تقويم المنصور » سنة 1342 هـ.

ولما انعقد مؤتمر الخلافة بمصر سنة 1344 هـ = 1926 م شارك فيه عبد العزيز الثعالبى .

هكذا كان مفهوم الامة فى تونس مرتبطا فى أذهان قادة حزب الشباب التونسى وقادة الحزب الحر الدستورى (القديم) بالخلافة الكبرى الى جانب المفهوم الوطنى الاقليمى ٠

والرأى عندنا اليوم أن مفهوم الامة بالمعنى الواسع الشامل العربى أو الاسلامى لا يكون إلا انطلاقا من شخصيتنا التونسية ومن وطننا تونس ٠

وهكذا يرتبط مفهوم الامة بمفهوم الوطن فى استكناه مقومات الشخصية التونسية ٠

والوطن هو المحيط الجغرافى والتاريخى والاجتماعى والاقتصادى والنفسانى والعقلانى ٠ وهو بمفاهيمه المتكاملة يعنى امتلاك رقعة من الارض والذود عن وحدة ترابها ٠ والوطن مناخ وسكان ورجال أعلام ونظم حكم واقتصاد واجتماع وعقيدة وأخلاق ولغة وعادات أهل وماض وحاضر ومستقبل وما أحمله فى أعماقى وما يحمله كل تونسى مخلص لوطنه من مشاعر ود لشعبنا ومحبة لبلادنا ٠

واذا اعترفت بأن الوطنية أحد مقومات الشخصية القومية أو القاعدية ، فلا مناص لك من الاعتراف بأن « الوطنية » المرتبطة بالقومية مصطلح عصرى قد اعتبر اكتشافه تحولا هاما فى تاريخ الشعوب فى العصر الحاضر ٠

قد ظهر الشعور الوطنى فى عديد من الاقطار وخاصة فى أوربا والولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر الذى شهد تواجد الاقاليم والولايات والدويلات فى نطاق أمة موحدة بعد طويل تشتت ٠ فهو عصر توحد الدويلات والممالك فى إيطاليا وألمانيا والولايات المتحدة ٠

والرأى عند بعض الباحثين المهتمين بتاريخ تونس كالأب ديمرسمان أن اكتشاف الأبعاد الوطنية ببلادنا قد ظهرت بوادره العصرية فى القرن التاسع عشر مدة حكم الأتراك بداية من عهد أحمد باى بالخصوص فيما بين سنتى 1837 و 1855 ٠

ويتحدث المؤرخون عن بوادر الشعور الوطنى بمفهومه العصرى لا عن شعور وطنى فى مستوى الادراك العقلى المتبلور التام المعانى ٠

ويكون من المفيد سلوك مسلك الأب ديمرسمان فى استكناه بوادر اكتشاف الأبعاد الوطنية بالرجوع الى اللغة الرائجة فى كتب الاخباريين والمؤرخين التونسيين فى القرن التاسع عشر مثل كتاب « أقوم المسالك فى معرفة أحوال

الممالك » للوزير خير الدين ، وكتاب « صفوة الاعتبار في مستودع الأمصار والاقطار » ، في جزئه الرابع لبيرم الخامس ، وكتاب « إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان » لأحمد بن أبى الضياف .

فلنتأمل بعض المفردات الرائجة فى تلك المصنفات من الناحيتين اللغوية والنفسانية .

1) تونس ثم 2) وطن

نجد لكلمة تونس وللنسبة « تونسى » فى مثل قولهم « الريال التونسى » « المال التونسى » وقعا عاطفيا دالا على وجود الشخصية التونسية .

وعساك تعلم أن أحمد باى (1837 – 1855) هو أول ملك حسينى تتونس فى لباسه ولغته فلبس الجبة وخاطب الباب العالى بالعربية بدلا من التركية ، واستعمل كلمة « تونس » بمفهوم دال على شعوره بالشخصية التونسية التى كانت تواجه فى زمانه بوادر هيمنة استعمارية أروبية ونوعا من الهيمنة التركية العثمانية على البلاد بواسطة القناصل فى الحالة الاولى والمماليك الأتراك فى الحالة الثانية .

تتونس أحمد باى بالرغم من انتسابه الى الأتراك من جهة والده والى الايطاليين بسردينيا من جهة أمه السبية من سنبيرة San Prierto وهاك دليلا على تونسته فى قوله مرة بمحضر كاتب سره أحمد بن أبى الضياف :

« من الواجب الدفاع عن الوطن والدار وتونس دارنا ونعمت الدار » .

ومع أحمد باى ظهرت نخوة الانتساب الى أرض تونس وعنده وضح رفض الانتماء الى أرض أخرى مهما فاقت إغراء وثراء كما يبينه حديثه مع كاتب سره أحمد بن أبى الضياف فى منتزه « شان زلزى » Chamqs Elysée بباريس أثناء رحلتهما الى فرنسا فى زيارة رسمية الى الملك لويس فيليب سنة 1946 .

قال أحمد بن أبى الضياف فى الجزء الرابع من كتابه « إتحاف أهل الزمان » (ص 108) :

« ولم يزل (أى أحمد باى) مدة إقامته فى باريس يتنقل من نزهة الى نزهة » وهو مع ذلك يتذكر تونس وعادات أهلها وأماكنها عند مشاهدة كل

عجيب ويقول : ليت مثل هذا عندنا بالمحل الفلانى بتونس حتى أنه مر يوما بمكان اسمه شان زلزى ومعناه ممشى الجنة ، فقلت له : كاد أن يوافق الاسم المسمى • قال لى : ما أشوقنى للدخول من باب عليوة وأشم رائحة الزيت من حانوت الفطائرى داخله • فقلت له مداعبا : وأنا أتنفس فى هواء الحرية وأرد من مائها وقدماى بأرضها • يحق لك ذلك لأنك إن دخلت من هذا الباب تفعل ما تشاء • أما الآن فأنت رجل من الناس • فقال لى :

لا سامحك الله : لم لا تحملنى على حب الوطن لذاته وعلى أى صفاته ؟

فقلت له : إن هذا البلد ينسى الوطن والأهل كما قال الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن نزيلهم يعاب بنسيان الأحبة والأهل

فقال لى : « اذن يصدق علينا المثل المشهور عند العامة : من رأى قمح الناس لا يبزع شعيره » •

ففى هذا الخبر ينكشف جانب هام من نفسية أحمد باى الملك المتشبع بتونسيته فهو لا يترك نفسه تنبهر ببريق العاصمة الفرنسية ويجتهد فى ربط الصلة المنقطعة بوطنه لكن بأى وطن تعلق ؟ هو الوطن الذى تغوص عروقه فى عالم الشعور وعالم المحسوس هو الوطن الذى يخاطب المخيلة والحواس قبل الادراك العقلى المفرط فى التجريد •

إن خواطر أحمد باى تقوم على الوطن المجسم بنظرة تلقائية ، المرتبط بالحساسية والشم كما يبينه خبر آخر رواه أحمد بن أبى الضياف ويخص أحمد باى عندما وصل الى مرسيليا فى طريق العودة الى بلاده • قال أحمد بن أبى الضياف :

« وشم من مرسيليا رائحة الوطن » •

ـوعلى كل فلفظ وطن أدل من غيره على التحول من مفهوم شعورى ضبابى الى مفهوم أوضح وأدل على الأبعاد الوطنية من غيره عند أحمد باى مثلا •

ولا عجب أن تبرز الشخصية التونسية فى ذلك الشعور بالانتماء الوطنى الى تونس عند أحمد باى الذى كان ميالا الى الاصلاح حريصا على تقدم مملكته بادخال تنظيمات جديدة فى الجيش والادارة والتعليم اقتداء بأوروبا التى اكتشفها أحمد باى سنة 1846 .

وقد أعجب ذلك الملك بمملوكه خير الدين فحرص على تربيته وتثقيفه فتضلع خير الدين فى فنون مختلفة ٠ ولما اضطلع بمهام الوزارة الكبرى بين أكتوبر 1873 وجويلية 1877 ساعده تكوينه الشامل وتجواله فى سفارات بأوروبا على زرع البذور الاصلاحية الاولى فى تونس بتنظيماته الادارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وخاصة باصلاح التعليم الزيتونى وبتأسيس الصادقية فتيسر الحوار بين المدرسيين والزيتونيين فانتعشت به النهضة واستفاد الوطن وتقاربت عقليتان شرقية وغربية تألفت منهما شخصية تونسية متأصلة فى أرضيتها العربية الاسلامية تواقة الى الرقى والتمدن بدون تمشرق ولا تمغرب ٠

وقد بدأ الحوار المساعد فى القرن الماضى على دعم الشخصية التونسية بدعم مقوماتها الثقافية وأرضيتها الاقتصادية والاجتماعية بين النخبة الحية من معاصرى خير الدين كأحمد ابن أبى الضياف ومحمد السنوسى وبيرم الخامس والجنرال حسين وعلى الوردانى ، ثم تواصل مع تلاميذ خير الدين أبكار المدرسة الصادقية من الجيل المتأثر بمبادىء ذلك الوزير المصلح كالبشير صفر ٠

وقد التفت نخبة من الشباب التونسى حول هذه الشخصية فظهرت الحركة التطورية التونسية فى ما بين سنتى 1896 و 1906 وتركت الأثر الثقافى والسياسى العميق فى البلاد ٠

تكونت تلك النخبة فى الصادقية والمعهد العلوى ومعهد سان شارل (معهد كارنو فيما بعد) ومعهد سان لوى وكلية الحقوق بباريس ٠ وقادها تحليلها للحالة السيئة التى آلت اليها البلاد الى الاقتناع بأن أهم سبب لضعف الشعب التونسى وتأخره زمنئذ هو الهزال الذى أصاب الذاتية التونسية كما يقول الشاذلى خير الله فى الجزء الاول من نشرية له بالفرنسية بعنوان « الحركة التطورية التونسية » (ط٠ تونس – جوان 1934 – ص 17) فارتأت تلك النخبة أن نشر الثقافة والتعليم حرى باحياء الشخصية التونسية فلا غرو أن نجد الجماعة جادين فى فرض وجودهم بتفكير عصرى فى النشريات والصحف والجمعيات كالجمعية الخلدونية التى أسسها البشير صفر سنة 1896 ٠

ثم يأتى الجيل الثانى من تلاميذ خير الدين ومن بينه محمد باش حانبة صاحب مجلة « المغرب » باللسان الفرنسى ، وشقيقه على باش حانبة مدير

جريدة « التونسى » باللغتين العربية والفرنسية باعث جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصادقية فى أواخر سنة 1905 .

وقد استهدفت تلك الجمعية اشعاع ثقافة حية مزدوجة بها تحقق الحوار المنعش وتيسر التطور مع المحافظة على أصالة الشخصية التونسية ثم سرعان ما انقلبت جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصادقية منتدى سياسيا على غرار الجمعية الخلدونية فكانت امتدادا ثقافيا لمعهد خير الدين اى الصادقية التى أخرجت أفواجا من المناضلين فكان أبرزهم الزعيم الحبيب بورقيبة .

وقد استعمل الوزير خير الدين لفظ « الوطن » بمعنى عميق فى العبارات « حرية الوطن » « أمر الوطن » « حب الوطن » « مصالح الدين والوطن » « أبناء الوطن » .

واختار خير الدين لجريدته « الرائد التونسى » الصادرة لاول مرة فى سنة 1860 شعارا دالا فى أعلى الصفحة الاولى على شعوره بالانتساب الى الوطن التونسى وهو : « حب الوطن من الايمان فمن يسع فى عمران بلاده انما يسعى فى إعزاز دينه » .

ونسبة التونسى فى اسم « الرائد » دالة على نوع الانتساب . انه الانتساب الى الوطن التونسى والحنين الى أنسه فى حين الغربة تتبينهما فى العديد من المناسبات عند الأدباء التونسيين فى القرن الماضى كما فى قول أحمد بن أبى الضياف من مطلع قصيدة مدح بها تونس وتشوق إليها وهو مقيم بالقسطنطينية :

« نسيم تونس حيانى ويحيينى — والطيب منه إذا ما تهت يهدينى
لا غرو أن تاه قلبى فى محبتها — فأصل نشأته من ذلك الطين »

وفى قوله من قصيدة أخرى أثناء إقامته بتركيا :

« تألق غربيا فذكر فى الخضرا — وأذكى لنار الشوق فى كبدى جمرا
حنينا الى أنسى ومعهد رفقتى — ومنشا شبابى لا عدمت به فخرا
بلادى التى ربت وحنت وهذبت — فبائسها ما أن يجوع ولا يعرى
سقى حلق واديها وكل حصونها — من السحب غيث يمطر العز والنصرا

وبين من ذلك الشعر أن أحمد بن أبى الضياف (1804 ـ 1874) **يستعمل** كلمة « تونس » بمفهوم ألصق بمدلول « الوطن » Terroir **منه بمدلول الـوطن** Patrie كما فى قصيدة الباجى المسعودى (1810 ـ 1880) فى وصف منازه تونس فى ضواحيها باب سعـدون وأريـانة وشطـرانة ورواد والمرسى وجبل الباجى بوسعيد وغيرها . وهاك مطلع القصيدة وهو جميل :

« حيى نسيمك حتى كاد يحيينـى   يا تونس الأنس يا خضرا الميادين

3) القطـــــر (Coutrée)

هذا مفرد آخر استعمل فى القرن التاسع عشر لابراز الشخصية التونسية ودل على بوادر اكتشاف الأبعاد الوطنية فى مثل عبارة « جهات القطر » واذا أضيف القطر الى ضمير المتكلم ونسب الى تونس فى قولهم « قطرنا التونسى » دل على ارتباط بالبلاد وعلى إرادة استقلال عن الباب العالى بالآستانة .

4) البـــــلاد

هذه كلمة أخرى استعملت بمدلول يوحى بالانتساب الى وطـن وبامتـلاك أرض والتعلق بها كما فى قول أحمد باى الذى تقمص فى القرن التاسع عشر **شخصية البلاد** فعبر عن وجوب حمايتها من مطامع الغزاة والمستعمرين **عندما كان الجيش** الفرنسى قابعا بالحدود الجزائرية ينتظر فرصة للوثوب ببلادنا فنجـد أحمد باى يقول مرة : « **حماية بلادى من الاستيلاء عليها** » .

5) عمـــالـــة (Province)

هذا اللفظ يؤكد تبعية تونس للامبراطورية العثمانية فى القـرن التـاسع عشر لذا فقد استعمل بكامل الحذر لأنه يزرى بنفوذ الباى الذى كان يسلـك دبلوماسية لينة مع الباب العالى موفقة بين الرغبة فى الاستقلال عنه والرهبة من معــاداته .

6) إيـــالـــة (Régence)

هذا لفظ من الالفاظ التى أصبحت ميتة فى لغة الشعب التونسى فى العهد البورقيبى الجمهورى . ـ فقد كان يستعمل لفظ إيالة للدلالة على التبعية للباى وبالخصوص عندما ينسب الى ضمير المتكلم بالتعظيم فى قول الباى :

« إيـالتنـا » .

7) بيـــت (Dynastie)

هذه كلمة أخرى فقدت مدلولها فى تونس اليوم وكانت تطلق على نظام الحكم الملكى بالبلاد فى القرن التاسع عشر ، وعلى أسرة مالكة استقرت فى تونس وحاولت أن تكون تبعيتها إسمية للباب العالى بدءا من عهد أحمد باى . ومثل ذلك المدلول لكلمة بيت نجده فى كلمة « مملكة » (Royaume) .

8) دولـــة (Etat)

هذا لفظ استعمله المؤرخون بصفة عامة عند ذكر الامبراطورية العثمانية وخصصوه للحكومة العليا باسطمبول فى القرن التاسع عشر .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن أحمد باى ينسب الدولة مرة إليه فى حديثه الى حاشيته عندما تولى حكم البلاد . قال المؤرخ الاخبارى أحمد بن أبى الضياف فى الجزء الرابع من كتابه : « إتحاف أهل الزمان ... » :

« افتتح (أحمد باى) أمره بأن قال لخاصة رجال دولته : قد ظهر لكم تقديمى على عادة بلادنا ومنزلتكم عندى هى منزلتكم عند أبى وعمى وأسلافى. ولا معنى للدولة إلا الرجال فاذا لم تكونوا معى كما كنتم مع من قبلى فلا ملك ولا دولة » .

والربط ههنا بين الملك والدولة مقصود عند أحمد باى إذ ذكر الدولة مرتين وربطها بملكه طبقا لنظام الحكم بالبلاد آنذاك .

ولكنه فى مناسبة أخرى استعمل كلمة « دولة » ونسبها الى العثمانيين أصحاب الحكومة العليا بالآستانة واكتفى بكلمة عمالة Province فى إشارته الى القطر التونسى . وكان ذلك فى رسالة بعث بها الى قنصل فرنسا فى شأن الخلافات القائمة حول الحدود بين الجزائر وتونس ، فكتب ما يلى :

« وحدود عمالتنا هى التى نتصرف فيها كما وجدنا من قبلنا لم نتجاوزها. وأما تجديد التحديد أو إبدال بعض العمالة بجزء من غيرها فمعلوم أننا نتوقف فيه على المشورة من جهة الدولة العثمانية » .

وبعد هذا يمكن الجزم بأن الدولة التونسية بمعناها العصرى حقيقة جديدة ظهرت لاول مرة فى بلادنا مع الاستقلال سنة 1956 وليس معنى ذلك أن البلاد لم تعرف من قبل أنواعا أخرى من الدول .

فمفهوم الدولة العصرية من مكاسب العهد البورقيبي وبها اكتملت الشخصية التونسية ٠

9) استقـــــلال (Indépendance)

هذا لفظ حي في لغة الشعب التونسي اليوم وهو من الالفاظ الحاسمة لدلالتها على حرية البلاد وبروز شخصيتها ٠

إلا أن لفظ استقلال استعمله المؤرخون التونسيون في القرن التاسع عشر للتعبير عن تبرؤ البايات من الاستقلال التام عن الدولة العثمانية اذ كانوا ــ مع حرصهم على التفرد بحكم البلاد التونسية ــ جادين في حب الاحتماء بالامبراطورية العثمانية من خطر الاحتلال الفرنسي المداهم من الجزائر ٠

أيقنتم الآن من العرض اللغوي التاريخي السابق أن عديدا من الكلمات الرائجة في القرن التاسع عشر جرفت مدلولات جديدة للانتساب الى الارض ٠

وبعد هذا فلنتساءل الى أي حد كان التونسيون شاعرين في القرن الماضي وقبله بشخصيتهم القومية مدركين ذاتيتهم في وطنهم ؟

نميل الى الاعتقاد بأن الماضي التاريخي الطويل لتونس باعتبارها رقعة جغرافية معينة وكذلك تشبع البلاد بالثقافة العربية الاسلامية ، وتعاقب الدول عليها ، كل ذلك قد ساهم في إفراز ما يسمى ذاتية أو شخصية تونسية ليست الشخصية الجزائرية ولا الليبية ولا المصرية ولا العراقية اذ تميزت عنها بصفات جعلتها نسيج وحده وإن كانت تلتقي معها في عناصر مشتركة كاللغة والـدين ٠

وقد تواصلت الشخصية التونسية في مد تاريخي مسترسل يبين ويغمض ويتضح ويلتبس بحسب الظروف عبر العصور ليبرز في القرن الماضي ثم يقوى في خمسينات القرن العشرين وبصفة أخص مع الزعيم الشاب الحبيب بورقيبة الذي فرض الشخصية التونسية على المستعمر مدة الكفاح الوطني ٠ فكانت الشخصية التونسية درعا واقيا من التحديات الاستعمارية المستهدفة إلحاق تونس بفرنسا وجعلها مقاطعة لها كفلاندر وكرسيكا وكذلك طمس الذاتية التونسية بسياسة التجنيس والتجهيل والتفقير ومحاولة القضاء على جميع مقومات شخصية أهل البلاد ٠

وقد عبر « مانشيكور » الذى اشتغل مراقبا امدنيا عن وجهة نظر غلاة المعمرين وحزبهم فى عدد شهر نوفمبر سنة 1924 من مجلة « إفريقيا الفرنسية » L'Afrique Française حيث كتب ما يلى بامضاء مستعار كعادته هو « رد بالك » (أى كن حذرا) :

« إن الشعب التونسى الجديد الذى نعده يتكون من الفرنسيين الواردين من فرنسا وكذلك من الروسيين لبيض ومن اليوغسلافيين والايطاليين ومن جميع العناصر اللا تونسية اللا عربية اللا إفريقية اللا مسلمة التى تختار الجنسية الفرنسية » .

وتدرك من اعترافات « منشيكور » بالنوايا الاستعمارية أنه كان مثل العديد من الغلاة يحلم بشعب فى تونس مفرنس منصر فى حين كان الوطنيون الصامدون بقوة الشخصية التونسية المتقاوية بمقوماتها وإيمانها على السجون والتغريب والرصاص يترصدون الفرص للدفاع عن الشخصية التونسية ويحملون بين جوانحهم أمل تخليص البلاد من الادماج وذل التبعية كما تبينه العينة التالية المقتطفة من جريدة « إفريقيا » بعددها يوم 19 جانفى 1925 فى ظروف كفاح محمد على الحامى :

« إن الذين يسعون الى سياسة الادماج ويريدون القضاء على الذاتية التونسية يعملون بكل قواهم لمحو مميزات هذه الذاتية وازالة معالمها الموجودة ويعارضون بل يقاومون كل مؤسسة يراد إحداثها ويريدون أن نبقى تابعين فى جميع احتياجاتنا ومرافق حياتنا لمؤسسات فرنسية فكأنهم قضوا على هذه الأمة بأن لا حق لها فى الحياة ... » .

ولما كانت التقاليد التونسية بجيدها ورديئها درعا واقيا من التحديات الاستعمارية من المحاولات المتكررة المستهدفة القضاء على الشخصية التونسية، ولم يحن بعد التخلى عن بعض التقاليد البالية كالحجاب باعتباره سلاحا واقيا من الادماج آنذاك ، فقد تصدى الزعيم الشاب الحبيب بورقيبة فى سنة 1929 لمحاضرة تونسية هتكت البرقع لمناصريها من الاشتراكيين الفرنسيين المؤيدين سياسة الادماج الاستعمارية وكان معهم محمد نعمان ــ قبل أن ينسلخ عنهم وينضم الى بورقيبة وحزبه الجديد .

فبعد محاضرة السيدة حبيبة المنشارى بقاعة جمعية « الترقى » L'Essor بالعاصمة يوم 9 جانفى 1929 تدخل الزعيم الشاب الحبيب بورقيبة باسم

الدفاع عن الشخصية التونسية وعلل تأييده للحجاب آنذاك تعليلا سياسيا مجانسا لسياسة المراحل التى وضع أسسها ، فقال :

« هل من المصلحة فى الظرف الحالى من حياة تونس التعجيل بازالة تقاليدنا سواء كانت حسنة أو سيئة وكذلك التعجيل بازالة الاشياء التى تبدو تافهة ولكن مجموعها يؤلف ذاتيتنا بدون مراعاة المراحل الانتقالية الضرورية ؟

طبعا إنى أجيب بالنفى نظرا الى الوضع السياسى فى البلاد حيث انتصبت الحماية وأخذت تتوسع وتمد جذورها وتحاول محو الذاتية التونسية وادماجها فى الذاتية الفرنسية بعد تجريدها من كل دعامة من دعائمها ٠

إن هذا الظرف يفرض على التونسيين التشبث بكل مظاهر ذاتيتهم ولو كان ذلك فى اللباس ٠

وليست المحافظة على الكيان موقوفة طبعا على رفض التقدم والظهور فى مظهر الانسان البدائى ، إذ لا بد من التطور وإلا كان المآل الاندثار ، وسيحدث التطور ولكن بدون كسر ولا قطيعة بطريقة تحفظ فى دوام متجدد وحدة ذاتنا التاريخية التى تستطيع ضمائرنا ادراكها فى كل حين ... بيد أن الوقت لم يحن بعد لرفع الحجاب فحين تنقذ الشخصية التونسية حينذاك تحين ساعة تطويرها بما يلزم واصلاح فسادها ويكون من اليسير تمزيق الحجاب » .

من مقال بالفرنسية : Le Voile dans l'Etendord Tunisien de 11-1-1929

وتظهر عبقرية الزعيم ههنا فى توقعه أحداث المستقبل وكان صانعه ، فقد وضع الزعيم تحرير المرأة فى المقام الثانى بعد إنقاذ الشخصية التونسية من خطر الفناء وذل التبعية واهتدى الى أن الدخول فى نقاش حاد حول وضعية المرأة التونسية والجهر بآراء إصلاحية جريئة فى قضية المرأة ونظام الاسرة يكون آنذاك سابقا لأوانه لا يرجى منه الخير لما قد يحدثه من بلبلة فى العقول وانشقاق فى الصفوف كما حدث بعد سنة فى الخصومة حول الطاهر الحداد وكتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » ٠

وما أن تحررت البلاد فى سنة 1956 حتى سارع الحبيب بورقيبة بتحقيق ما توقعه فى سنة 1929 بعد أن أصبح المسؤول الاول فى الدولة فأصدر مجلة الاحوال الشخصية التى تضمنت حقوق المرأة وواجباتها وكان ذلك فى الثالث عشر من أوت سنة 1956 ، وقد جرى العمل بمقتضاها بدءا من غرة جانفى 1957 ٠

بعض مراجع البحث

ابن خلدون « المقدمة » .

ول ديورانت « قصة الحضارة » ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، ط. القاهرة 1956 ، ج 1 .

البشير بن سلامة « الشخصية التونسية » خصائصها ومقوماتها ، ط. مؤسسات بن عبد الله ، تونس 1974

علي الحصري القيرواني « ديوان اقتراح القريح واجتراح الجريح » في كتاب « أبو الحسن الحصري القيرواني » لمحمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى ، مكتبة المنار ، تونس 1963 .

أحمد بن أبي الضياف « إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان » ج 4 ، ط. تونس 1963 .

خير الدين باشا التونسي « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » ط. تونس 1968 .

جريدة « تقويم المنصور » سنة 1342 هـ.

جريدة « الرائد الرسمي » .

جريدة « إفريقيا » 19 جانفي 1925 ، من مقال محمد محيي الدين القليبي « شغب وتضليل ومكابرة عجيبة » .

البكاء بدموع العفراء ...

شعر : السويلمي بن جمعة

« .. الى الفلسطينية التى قالت لى : نحن جميعا فلسطينيون ، لاننا ـ جميعا ـ محتلـون ..! »

« بـاريس »

رموشك فى الليل اشرعة راحله
ترامت بعيدا كأجنحة فى المدى موغله
ينوء بها الصمت .. يدفع اطرافها المائله
وانت معى فى ممرات عمري القصير
ملاذ أخير ...
أزورك يا وردة القمر الذابله
أضمك لى فى المساء ..
وقبل الصباح أطير

عرفتك جوعا وبردا .. عرفتك يتما وكنا صغيرين نستقبل العائدين حفاة ونضحك .. نبكى .. نلوح للغائبين العراة ...

عرفتك خلف السياج السميك جفافا توالى وعسفا أطاح باخيارنا في عصور التأهب للموت آه لماذا كبرنا .. لماذا حسرنا بقية يوم تشقق فيه زجاج النوافذ حين أفقنا على طلقة حاقده ...

واذكر كيف هجرنا مضاجعنا اليابسه
واذكر انا كتبنا على الحائط ...

واذكر ان الذى قادنا كان يعرف اسماءنا .. كان مثل حصان هجين ..
واذكر اذكر اذكر اذكر ...
وجوه الرجال المطأطأة الشاحبه
الى أين ساروا .. وأين اختفوا ..؟
عرفتك فيهم .. وفى .. وفى الآخرين
وكان الذى قادنا حاملا بندقيه
ككل البنادق حبلى بأوجاعنا فى تخوم
الحرائق .. والنهر يجرى رمادا وملحا ،
وتجرى العيون دما فى الضباب الكثيف .
وسرنا جميعا نطوف الشوارع .. نهتف
باسمك حتى تغير حجم المدينه
وكنت وراء النوافذ واقفة شامخه ..
لان الذى قادنا كان يعرف اسماءنا عندما داهمتنا الخيول **الهجينه ....**
واذكر صوتك فى كل شىء يمر **ويبقى**
اذكر جسمى وجسمك تحت السياط الكثيره
واذكر اقدامهم حولنا كان وجهك عنقود كرمه
فهل حال بينى وبينك هذا الجحيم الملوث ..
فقولى لهم : نحن خلف المتاريس نكتب للقادمين وصيه
وتلك خنادقنا فى جبال الترقب .. **تلك عروق الرحم**
سينفجر اللغم **قبل الاوان**
ونعبر منك اليك
ونحفر بحرا جديدا مكان الجبين
ونحفر بحرا جديدا مكان الجبين
لنستقبل العائدين
طلائعنا المبعده
وفى عنفوان التمرد فى **عنفوان الغضب**
نجزىء أجزاءنا ــ فيك ــ (عفراءنا) « يسقط العاطلون »
« نقسم أجسامنا فى الجسوم الكثيره »
ويملؤك الثائرون .

الفلسفة الكشكول ...

بقلم : رضا بن رجب

لقد أقر « شيخ علم » من قومك فى مطلع دراسة « ملأت تونس وشغلت أهلها » أن شأن العرب مع أدبهم غريب . ورغم تخوفك من الانزلاق فى محنطات القوالب تستطيع ان تقول ان شأن الفلسفة غريب ، ضبابى وأغرب منه شأن قومك منها .

تستقرىء التاريخ ، فتجد المعرفة الفلسفية من أعـرق أنمـاط المعرفـة ، طالعتنا بعمالقة صبغوا العقول وتجاوز بعضهم الاشخاص الى تراكيب الدنيا فغيروا مجراها .

فترى ــ رؤية العين ورؤية القلب ــ أن التفكير الفلسفى يتجـاوز اللهـو والمهاترات والتهويمات الى الغوص على منزلة الانسان فى انيته واجتماعه ، فى دينه ودنياه .

ثم تجول بنظرك فيما حواليك ، فتجد قومك تتقاذفهم فى شؤون الفلسفـة المفارقات والمتناقضات .

فمنهم من يتهافت عليها تهافت الفئران على خفى الاشـراك ، فيتخـم بهـا ويزور لها عن الحياة وصروفها .

ومنهم من « يعوذ بالله منها » ، شاحنا فيها الاشرار والآثام ، حـامدا لمـن نادى « ان كان الكفر أحب الى نفسه من فاء الفلسفة » .

فتهيم بين الامر ونقيضه وتزيد تعمقا فى قومك متمثلا ما نادى به أرسطـو من الاعتدال ، علك تجد بينهم ما لا تنزعج له نفسك لما جبلت عليه من التخوف من الثنائيات المزعجة والمانويات المحنطة . تطيل النظر وشعـارك الصبـر ،

وتجيل الفكر ومعاذك التريث ، فترى فى القوم ألوانا وألوانا . يصادفك « المستثقف » الذى ما زال يوخزه داء المطالعة ، وتعلم أن هذا الداء بين الناس قليل ، تشفيه عادة الشهادة المخولة للتدريس او للادارة ــ فتجده قرأ بعض التعاليق الفلسفية وحواشى لقدماء او محدثين . فبقيت له من هذا الشمتات المتناثر أفكار قليلة وشعارات كثيرة امتطاها لصارعة كل من ينازله فى ميدان الفلسفة متصورا ان بيده السيف القاطع والدرع الواقى والحجة المذهلة .

وتنصت لحديث العهد بالباكالوريا ، فيكاد يسرد عليك ــ مع أنك تصورت زمان السرد ولى وانقضى ــ مقاطع « كانطية » وأقانيم « ماركسية » و« اهازيج إفلاطونية » . فتعجب لنجابته وتنشرح لفيض تطلعاته ، ولكنك لا تربط بين كل ما رواه لك وتتحرج فى ان تطلب منه ان يعينك على هذا الربط لأنك علمت منذ القديم « أن فاقد الشيء لا يعطيه » . فتزيد توغلا فى شؤون قومك ، فيصادفك من يريد الارتماء فى بحر الفلسفة ، ولكنه يجاهرك بضبابية المسالك أمامه ، فلا يعرف مآخذ الامور ويخاف أدغال المجلدات . تريد مواصلة الجولة ، فلا تقوى على ذلك لما تشعر به من دوار بدأ يزعجك وأسئلة ملحة تنقض عليك فتحدث وسواسا قهريا ، فترجع الى نفسك علك تنفض عنها ما علق بها من ذهول وتتساءل « هل الداء فى الفلسفة ؟ هل هو فى قومى ؟ أم هل هو فى أرضية تربوية كاملة يتحتم اصلاحها وتعهدها لتنجو الفلسفة من الغبن والالتباسات وليسلم القوم من البلبلة فى « تمشرقها او تمغربها » .

تلح عليك هذه الاسئلة ، فتقوى على نفسك وتستجمع شتات فكرك محاولا الخروج ببعض الخواطر التى قد تعين ــ ان قريبا وان بعيدا ــ على تبين الحال . وسلواك فى كل هذا أن « من اجتهد واصاب فله أجران ومن اجتهد واخطأ فله أجر واحد » .

فاقتحم الاجتهاد متحملا تبعاته وادع قارئك الى لقاء قريب . فالقضية شائكة تحتم الحكم ، وقد تستدعى « الاستئناف » وربما تتجاوز ذلك فلا يسعها الا « التعقيب » .

ملاحظة : هذا الفصل مدخل لدراسة مطولة نحن الآن بصدد اعدادها تحت عنوان « هوامش فلسفية » .

تونس ... والدولة الوطنية

بقلم : البشير بن سلامة

ان دراسة التاريخ شائكة لانها اصبحت لا تقتصر على جمع الاحداث ونقل الاخبار وسردها ، بل انها تعد فرعا من العلـوم الانسانيـة يعتمـد الظـاهرة التاريخية ويتقيد بمنهاج مضبوط بفضله تجمع الوثائق وتحلل وتنقد لاستعادة الحوادث التاريخية كما كانت عليه فى الماضى فى اطار من الموضوعية والتجرد والنزاهة والامانة العلمية التى لا تترك سبيلا الى التأويل او التمويه او غمط الحقائق .

غير أن علم التاريخ اذا وقف عند اثبات الوقائع وتثبيتها فقط يكون قـد أخل بوظيفته كعلم لان العلم لا يقتصر على ابراز الظواهر وامرارها على التجربة والتجريب لتصير قوانين علمية لا يداخلها الشك بل هو يتعـدى ذلـك الـى التطبيق فى مجال الحياة اليومية لينتفع به الناس ويتبدل حالهم من حسـن الى أحسن . لان العلم للعلم ضرب من الزيف وباطل أكيد يفـرض علينـا ان نؤمن بان العلم للحياة او لا يكون .

لهذا فان التاريخ لا يمكن أن يكون أيضا تفلسفا فى الاحداث والوقائع بـل يجب ان يكون دافعا للمجتمع « الى ان يعى نفسه سياسيا » وأن يتفطن الى « الروابط التى تشده بالماضى والحاضر وتهىء لـه المستقبـل » . « فحـال المجتمع اليوم منبثق من حاله بالامس وهو يشعر بثقل ما سيكون عليه غدا وان بصورة متوقعة » . ودراسة التاريخ بهذه الصورة تتعدى التفلسف فيه الـى **صنعه** بالاعتبار به وجعله مادة دفع لحياة البشر لا اداة لتدمير العـزائم وبث الفوضى وتخريب المجتمعات وخلق الاحن وزرع التطاحن .

وتاريخ تونس لا يمكن ان يكون مجرد دراسة لدول تتعاقب وقبائل تتطاحن وامبراطوريات تقام وأخرى تنهار بل يجب ان يأخذ الدارس بعين الاعتبار أن تونس اليوم ، وهى واقع سياسى واقتصادى واجتماعى وثقافى لـه سماتـه

الخاصة وقواه الحية ، وملامحه المضبوطة لم تصنع فى القرن الثالث عشر ميلادى مع الحفصيين ولا مع جودة باشا ولا أحمد باى فقط بل هى صنعت من أول يوم بنيت فيه الحضارة على أديم قرطاج كنواة لامة تنشد الحياة ودولة تنظم العمران وتزع بين البشر . فكل ما تم من احداث على هذه الرقعة أدت الى صنع تونس اليوم واقامة **الدولة الوطنية** البينة الملامح الواضحة السمات .

فدراسة تاريخ تونس تتلخص من هذه الوجهة فى ضبط المراحل التى أدت الى تكوين الدولة الوطنية فى هذه الفترة دون الفترات الاخرى وحصر الاسباب التى حالت دون ذلك فى الماضى البعيد والقريب .

فكيف يمكن ان تتكون دولة وطنية على هذه الرقعة من الارض المغربية وقد تعاقبت عليها دول عديدة متباينة الحضارات والاجناس والحال ان افريقية ثم تونس لم تكن الا جزءا من امبراطوريات مختلفة ؟ ثم ما هى الدولة الوطنية وما هو مدلولها ولماذا لم تبرز للعيان الا فى الفترة الاخيرة ؟ أسئلة تستحق ان توضع لا محالة وتحتاج أجوبتها الى الخوض فى عدة اعتبارات لا مناص من اقتحامها .

هذه الدولة الوطنية التى انتصبت فى هذه الرقعة من الارض ألا وهى تونس والتى انتهى بها المطاف الى الانصهار فى الحضارة العربية الاسلامية تراوحت عليها منذ أول التاريخ أمم متباينة وحضارات متعاقبة أرادت كلها أن تطبعها بطابعها الخاص . فالمتتبع لسير تاريخ بلادنا يندهش لظاهرة تكاد تكون فريدة : وهى تبديل الوجهة الحضارية على الاقل خمس مرات . مع قرطاج الفينيقية البونيقية ثم الرومان وبعدهم الوندال الذين لم يلبثوا أن زحزحهم البيزنطيون ثم العرب الفاتحون وفى كل مرة ينصهر هؤلاء الاقوام فى البلاد ويشيعون حضارتهم ويفرضون رؤيتهم الكونية ويحاولون جر أهل افريقية الى بوتقهم ولكنهم لا يفلحون الا مرة واحدة فى التاريخ عندما قدم المسلمون وأشاعوا بين البربر دين الاخاء والمساواة والعدالة وغرسوا اللغة العربية كلغة تخاطب ولغة علم وأدب وفكر فى هذه الربوع . ولعل السبب كما اكده العلماء المعاصرون هو انحدار البربر من الجنس العربى .

وان هذا الانتصار ليثبته ما حل بهذه البلاد فى القرن السادس عشر من عوامل تنبىء فى العادة بتحول الوجهة الحضارية كما وقع سنة 880 قبل الميلاد مع قرطاج الفينيقية البونيقية وسنة 146 قبل الميلاد مع رومة وسنة 439

مسيحى مع الوندال وسنة 534 مع بيزنطة ومع العرب المسلمين سنة 647 ميلادى . وفى كل مرة يفرض دين وتطغى لغة على سكان البلاد . ذلك أن الاسبان احتلوا تونس سنة 1535 ميلادى (942 هـ .) وبسطوا عليها ألويتهم فى حرب صليبية يقودها شارلكان ملكهم وما لبث أن حل الاتراك سنة 1575 م ليخلصوا البلاد لا محالة من الغازين ولكنهم وجهوا البلاد وجهة أخرى بحسب تقاليد دخيلة ولغة أخرى غير معروفة آنذاك : اللغة التركية .

ولكن شعب هذه البلاد الذى انساق بعد اكثر من سبعة قرون من الاشعاع البونيقى الى حضارة رومة وبقى متأثرا بها ما يقرب من ثلاثة قرون لينزل تحت تأثير الوندال حوالى قرن ويعود الى البوتقة اللاطينية ويبقى أكثر من قرن فى حبالها لم تزعزعه أحداث القرن السادس عشر ميلادى اذ وجد توازنه فى الحضارة العربية الاسلامية التى انصهر فيها طيلة ما يقرب من تسعمائة سنة وأجبر الاتراك الذين حكموا البلاد عن طريق الدولة الحسينية الى الانفصال ولو بصورة شكلية عن الباب العالى فراسله أحمد باى (الباى العاشر) سنة 1838 باللغة العربية لاول مرة بعد أكثر من 250 عاما من التعثر والتحسس وتصارع القوى لان أتراك تونس كما قال المؤرخ الفرنسى شارل أندرى جوليان : « انصهروا فى بوتقة واحدة مع التونسيين لانهم وجدوا أنفسهم بازاء حضارة ثابتة الاركان وأسسوا دولة يمكن نعتها بالوطنية ألا وهى الدولة الحسينية » وهل كانت حقيقة وطنية ؟ سنرى ذلك فيما بعد .

ولكن كيف يمكن أن تكون الدول التى سبقت الدولة الحسينية منذ الفتح الاسلامى وطنية (الدول التى جاءت قبل الفتح الاسلامى غاصبة) والحال أن معنى الدولة عند العرب المسلمين لم يكن يعنى البتة الا العائلة الحاكمة او المالكة والكلمة آتية من الاكادية « دالو » وهى التيه بدون غرض ومن السريانية دال أى تحرك . ولم تظهر كلمة الدولة الا مع بنى العباس فى معنى الدور فى الانتصار ثم اصبحت ابتداء من القرن الثالث تسند الى الوزراء كولى الدولة وعميد الدولة وغيره وهى اذن تفيد التداول والتعاقب بينما بالفرنسية تفيد كلمة : Etat (الآتية من اللاطينية : Status) الاستقرار والصمود .

وليس هذا الا زيادة فى الدليل على ان الدولة فى بلادنا فى القديم لا ترمز الى التمثيل الحقيقى للسكان بل أننا نجد فى هذه الدول التى ذكرتها ما يمكن أن ينعت بصفات أخرى غير الوطنية فهى تارة دول غاصبة وطورا دول متحالفة وأخرى قائمة على العصبية .

فالدول الغاصبة هى مثل دول الرومان والبيزنطيين والوندال اذ هم أقوام جاؤوا بعدد كبير واستقروا فى البلاد وسخروا الارض والعباد من اجل ابتزاز الخيرات ، ومن درس الفترة الرومانية فى بلادنا يعرف ما هو الاستغلال والاستعمار الذى هو شبيه باستعمار الفرنسيين لأن هؤلاء حاولوا تطبيق ما كان يقوم به الرومان فى ذلك الوقت .

ودولة الوندال هى ايضا دولة غاصبة لانها استغلت الحكم لها وحدها ، ولم تقم بأى تعمير يذكر خلافا للرومان بل انها عرفت بالتخريب والتدمير وقس على ذلك حكم الاسبان الذين بقوا اكثر من خمسين سنة بتحريض من الحسن الحفصى وخيانة منه من اجل الابقاء على عرشه .

أما الدولة الوحيدة التى يمكن أن نسميها متحالفة فهى دولة قرطاج . لانها لا يمكن ان تكون مستعمرة اذ هى لم يعرف عنها انها كانت تابعة لامبراطورية ما بل هى انصهرت مع سكان البلاد ولم تكون امبراطورية بالمعنى المعروف بل كانت هناك مدن مستقلة على السواحل تتعامل مع الاهالى وتضفى عليها من حضارتها حتى ان الاسماء الموجودة على كثير من القبور هى بربرية ولو أنها مكتوبة بالبونيقية . لهذا فلا يمكن ان تعد دولة قرطاج استعمارية بل هى التى بذرت بذرة الحضارة بتكوينها فى ربوعنا أول دولة بأتم معنى الكلمة ، بنظام مؤسساتها المعقد والخاضع لقوانين مضبوطة حتى أخرجت رجالا عظاما فى السياسة وفى الحرب والفلاحة وغيرها من الميادين الاخرى وأشعت على كامل افريقيا الشمالية ناهيك ان ماسينيسا كان يقلد القرطاجيين فى حياته واتخذ اللغة البونيقية لغة رسمية . ولو أتيح لدولة قرطاج الاستمرار لأمكن لها أن تزرع بذرة الدولة الوطنية التى ينصهر فيها جميع المتساكنين . ولكنها مثل غيرها من الدول ضربت أفرادها الانانية وحب الذات وطغت على القادرين فيها الرغبة فى الكسب والازورار عما ينقذ الوطن ويفيده وتقلصت الروح الوطنية . حتى أن حنبعل عندما وجد خزائن الدولة فارغة وأصدر قانونا جبائيا يفرض على الاثرياء تمويلها كادوا يسلمونه الى رومة . ولكن هذه الادواء ما لبثت ان عجلت بانقراض هذه الدولة التى كان يمكن لها أن تعد بحق الدولة الوحيدة التى عرفت فى تلك الحقبة السحيقة كيف تصهر البربر فى بوتقتها .

وهناك الدول التى تكونت بالاعتماد على العصبية سواء كانت بالنسب او بالولاء فالعصبية بالنسب هى التى ترتكز على الاشتراك فى الدم والعصبية

بالولاء هى التى ترتكز على الحماية مثل اعتماد الدولة الاغلبية على الدولة العباسية او الدولة الصنهاجية على قبيلة صنهاجة .وهكذا فان الدولة لا يمكن ان تقوم الا على عصبية ما وهذا ما اثبته ابن خلدون .

أما الصفة الوطنية فى التحاقها بكلمة الدولة فهى راجعة الى لفظة وطن ولها دلالات عديدة . فالوطن فى الاشعار الشعبية وفى النصوص الادبية والتاريخية هو عبارة عن الرقعة التى تعيش فيها قبيلة ما من ذلك مثلا الوطن القبلى ، ثم اتسع مدلول هذه الكلمة واصبح يدل على القطر وأصبح « لا يشعر فيه المواطن بأنه فى وطن الا من خلال المدينة او القرية أو الحومة التى يعيش فيها » وزيادة على ذلك فان « الوطن لا يفهم على انه أرض وسماء او مجموعة من مواطنين تجتذب كلا منهم قيم وعقيدة وانما يعتبر الوطن وحدة بارضها وسمائها وبحارها ومواطنيها الموحدين عقيديا العاملين فى اتجاه واحد فى ظل عقيدة واحدة » « فمن شروط الوطنية الاسلامية » .

وهكذا فان مفهوم الوطنية هو امتداد لهذه القيم المتداخلة الغزيرة التى كان يصدع بها المصلحون فى أوائل هذا القرن وهذه القيم هى مستمدة من مفهوم الأمة عند المسلمين .

وليس من الغريب أن يقول أحد الدارسين : « ان فضل الحركات التحريرية هو انها كانت سببا فى بعث الوعى الوطنى فى صورته العصرية . ويظهر أن البلاد التونسية ومصر هما الوحيدتان من بين البلدان العربية التى لهما شخصيات وطنية المعالم » .

ولكن ما هى الوطنة فى معناها العصرى ؟ وهى بالذات التى يطلق عليها كلمة القومية . هى كما حددها بعض علماء الاجتماع بالصورة التالية : « ان جوهر الوطنية هو الاعتقاد بأن مصالح صنف اجتماعى ما أى الوطن ، أهم من مصالح أى فرد وان الحكومة هى العنصر الاساسى للتعبير عن هذه المصالح » . ويردف قائلا : « ان المشكل هو ان الوطنية هى ديمقراطية اساسا وان ارادة الشعب ليست محافظة بالضرورة ولان أخص خصائص الوطنى الحق هو ان يكون مستعدا للتضحية بكل شىء بما فى ذلك القيم التقليدية فى سبيل عزة الوطن ووحدته » .

ويتجلى من هذا ان الوطنية الحق هى التى تعتبر مصالح المجموعة أهم من مصالح الفرد اى المصالح التى يشترك فيها مع غيره وان الممثل لهذه المصالح

المشتركة هى الحكومة . وهكذا فانه بالنسبة الينا كتونسيين فان مصالح المجموعة اتسعت من الفهم الضيق للقرية او المدينة او الحى او محط رحال العرش أو القبيلة الى الرقعة الجغرافية التى تسمى البلاد التونسية او تونس.

وبهذا تكون الحركة الوطنية اضفت فى الواقع مفهوما عصريا على الوطنية خاصة اذا اعتبرنا ان الوطن هو : « هذه المجموعة التى تكون واعية بالخصائص التى تميزها مهما كانت الاسباب والتى لا ترضى بحكم الاجانب وتطالب بدولة ذات سيادة خاصة بها » .

وهذا بالضبط ما لم يكن موجودا قبل الاستقلال اذ كان التونسيون يرضون فى آخر الامر بحكم الاجانب من ترك وغيرهم وان على مضض اذ كان فى تونس كما قال الاستاذ عبد الوهاب بوحديبة : « وطنية بدون وطن (بمعنى الامة) لان هذه لم تبرز قوية الا مع بعث الحزب الجديد سنة 1934 على يد بورقيبة » ولعل الاجدر ان يقول : كان هناك حب للوطن فقط ، لان الوطنية تقتضى وجود الامة ما فى ذلك شك .

لذا فان شعور التونسى اليوم مثله كمثل المصرى والجزائرى والمغربى قد ارتقى الى المرتبة التى تجعل منه يعى انه ينتمى بوطنه الصغير الى أمة بأتم معنى الكلمة فهو يذود عنها ويضحى من أجلها بكل شىء مثلما تم أثناء الحركة التحريرية فتحولت تلك الوطنية التى تقتصر على الحى والعرش والمدينة والقبيلة لتتسع الى الامة التونسية بأجمعها الى وطنية بالمفهوم العصرى تضم البلاد التونسية مع تقلص الشعور الثانى الذى لم يبق من يمثله اذ كانت الخلافة هى الممثلة له ولكنه ظهر فى مظاهر أخرى لا أظنها تتضارب مع الشعور الاول ولا تنفيها .

والدليل على ذلك هو أن هذه الوطنية التى أصبحت لها محتوى مرتبط بالامة التونسية قد مالت شيئا ما الى التضحية ببعض القيم التقليدية التى هى فى الواقع ليست من مقومات الشخصية التونسية العربية الاسلامية بل هى دخلت على القيم الاسلامية وحجرتها مثل الفروق الموجودة بين موقف الاسلام من المرأة وبعد ذلك موقف بعض المسلمين منها والمجتمع الاسلامى بصورة عامة وكذلك الفرق بين النظرة الاقتصادية فى تطورها فى أول الامر وحركيتها وجمودها وانحطاطها فيما بعد .

غير ان الوطنية بالمفهوم العصرى كما ظهر مع الحركات التحريرية وتبلور تبلورا كانت له بذور قديمة حتى انه يمكن القول ان الاسلام ساعد الوطنيات

على البروز وأبقى على الامم ولم يمسخها رغم شعورها بالانتماء الى الامة الواحدة أي الامة الاسلامية وتطور هذا الى مفاهيم أخرى هي القومية تارة والوحدة أخرى وغيرها . فيمكن القول بأن هناك ثنائية قديمة لم تبرح الشعوب العربية وهي الآن في سبيل التطور الى نوع من الاخوة لا يتنافى مع الوطنية .

ومن يستقرىء التاريخ يجد ان بذرة الوطنية موجودة من القديم وان الذى فهم المغرب العربى فهما حقيقيا وتصور سير التاريخ على الاساس الصحيح هو ابن خلدون الذى عاش مع القبائل البربرية والعربية وعرفها ورأى رأى العين قيام الدول وانهيارها ، ولا بأس أن يتوقف القارىء لتاريخ ابن خلدون أمام أسطر قليلة يصف فيها هذا المؤرخ الواعى تحرك التاريخ بالنسبة لهذه الدول أى أنه يصف في واقع الامر الغاية التى كان يصبو اليها أهالى هذه البلاد من أول التاريخ . يقول عندما يتحدث عن الخوارج في المغرب وغيره : « وركدت ريح الخوارج من البربر في افريقية وتداعت بدعتهم الى الاضمحلال وأخمدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا الدين . فضرب الاسلام بجرانه والقت الدولة العربية على البربر بكلكلها وتقلد الاغلب التميمى أمر أفريقية والمغرب من قبل الرشيد فاضطلع بأمر هذه الولاية وكانت لهم بافريقية والمغرب الدولة التى ذكرناها من قبل يعنى الاغالبة الى ان انقرض أمر العرب بافريقية على يد زيادة الله عاقبتهم الفار الى المشرق أمام كتامة سنة 296 وخرج كتامة على بنى الاغلب بدعوة ــ العبيديين ــ ثم يزيد فيقول : « واستقل كتامة الامر من يومئذ ثم بعدهم من برابرة المغرب وذهبت ريح العرب ودولتهم من المغرب وافريقية فلم يكن لهم بعد دولة الى هذا العهد ، أى عهد الحفصيين وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى وجيلا بعد آخر تارة يدعون الى الأمويين الخلفاء وأخرى الى الهاشميين من بنى العباس وبنى الحسن ثم استقلوا بالدعوة لانفسهم آخر الامر » . وهذا لم يكن في ذهن ابن خلدون ليتنافى مع انتساب هذه الدول الى الحضيرة الاسلامية وانما هو شعور بنوع من الوطنية سيحتد ويبرز شيئا فشيئا ويتبلور فيما بعد حول هذه الكلمة التى نطق بها ابن خلدون وهي الاستقلال . ولهذا فان الدول التى تكونت في المغرب العربى انما تكونت بروح وطنية .ولكنها ليست الوطنية التى نفهمها اليوم وحددتها سابقا .

ولهذا فان الدولة الوطنية بأتم معنى الكلمة لم تتكون الا في عصرنا ولكن بذورها كانت موجودة من قديم وتشكلت في صور عديدة ولكنها كانت توقا وأملا لم يتحقق الا بعد المحن العديدة .

فعندما نقول : ان الدولة الوطنية لم تتكون فهو صحيح لان الدول ـ غير الغاصبة ـ التى قامت انشئت على العصبية وهذا لا يمنع من أن نعتز بها لانها صنعت الحضارة بأيدى أبناء هذه البلاد وأقامت المدن والاساطيل وأشاعت الحضارة بأيديهم ولكنها أقيمت هذه كلها على العصبية ولذا كانت دولا بأتم معنى الكلمة أى تتغير وتتبدل وتدل على العائلة الحاكمة او المالكة أكثر مما تدل على الدول لان « الدولة العصرية نظم قبل أن تكون أفرادا والدولة المتخلفة أفراد قبل أن تكون نظما . وفى الدولة المتخلفة تقف التبعة عند حدود الاسرة وفى الدولة المتقدمة تجاوز التبعة هذه الحدود لتمثل الامة بأكملها وفخر المواطن فى الدولة العصرية ان يطيع القانون لانه هو واضعه وفخر المواطن فى الدولة المتخلفة أن يعصى القانون ، اذا سلم من العقاب ، لان القانون موضوع له من سلطة خارجية » . ولهذا فان الدولة الوطنية العصرية على ارض تونس هى تلك التى انبثقت من الصراع الطويل الذى ذكرته وأشار اليه ابن خلدون ولكنها تلك التى انبعثت من عزيمة كل التونسيين أثناء الكفاح التحريرى لا فرق بين أهل الارياف والمدن والقرى والمداشر والعروش والقبائل .

وبعد هذا ما هى الاسباب التى حالت دون تكوين هذه الدولة الوطنية لعل ذلك يرجع الى أن فكرة الوطنية كما قلت آنفا هى فكرة جديدة لان الظروف لم تسمح بظهورها ولعل اختلاط المفاهيم والثنائية المتغلغلة فى النفوس كانت سببا فى ذلك . ولكن رغم هذا فان دولا لها بصيص من الوطنية تكونت على هذه الارض مثل الدولة القرطاجية والصنهاجية والحفصية والحسينية ولم تسعفها الظروف لتكون وطنية بأتم معنى الكلمة . ولعل هذا يرجع الى خطورة الموقع الجغرافى .

وخطورة الموقع الجغرافى آتية من أن سكان هذه البلاد ـ بما فى ذلك بلدان المغرب ـ لم يتمكنوا الاحقاب تلو الاحقاب من تكوين حضارة خاصة بهم لانه كلما قامت دولة شبه وطنية الا وداهمتها أقوام من الخارج يحملون معهم لغتهم ودينهم وتقاليدهم وهذا العدوان من شأنه أن يعطل سير الحضارة الأصيلة مهما كانت درجتها . وهذا بالضبط ما وقع مثلا لتونس فى العصر الحديث عندما بدأت نهضتها على يد خير الدين ولكن الاحتلال الفرنسى والنظام الاستعمارى أوقفا هذه الانطلاقة ووجهاها وجهة أخرى . فتغيير الوجهة الحضارية كما ذكرته سابقا كان سببا فى منع سكان البلاد من أن يكونوا لانفسهم لغة مكتوبة وحضارة تجمع بينهم وتغير الفوارق مثلما هو الشأن فى الجزيرة العربية او مصر او فارس لامتناع هذه البلدان عن أن تكون فريسة

سهلة للغاصبين . ولكن سكان البلاد وجدوا في آخر الامر في الاسلام والحضارة العربية الاسلامية ما مكنهم من ان يحاولوا انشاء دول وطنية .

ولكن رغم هذا فان هذه المحاولات باءت بالفشل لاسباب عديدة أهمها :

1) ان ماهية الدولة ليست بالمعنى الكامل الذى يجعلها تراعى جميع المصالح بل هى قائمة على العصبية اى على جزء من السكان بحيث ان دور الدولة يتقلص وينحصر فى أقلية سرعان ما تستأثر بكل شىء فتنقلب الدولة فى وظيفتها الى سيد له جميع الحقوق على غيره من دون أن يقوم بواجباته اللهم الا ما يوطد أركان حكمه .

2) أن الثنائية التى ذكرتها وانعدام الحدود بين الوطنية والانتماء وعدم وضوح معنى الامة فى الاذهان فى تأرجحه بين الدين والوطن كل هذا كان سببا فى عدم ظهور الدولة الوطنية وانهيار الدول التى انشئت فى أولها على نوع من الوطنية (الاستقلال بالدعوة الى النفس كما ذكره ابن خلدون) . وهذه الثنائية نجدها حتى فى العصر الحديث عند فيلسوف كاقبال عندما يقول : « لا ريب ان الوطنية لها مكانها وأثرها فى حياة الانسان الاخلاقية ولكن العبرة فى الحقيقة بايمان الانسان وثقافته وسننه التاريخية هذه فى رأيى الامور التى تستحق أن يعيش لها الانسان ويموت من أجلها لا بقعة الارض التى اتصلت بها روح الانسان اتفاقا » . وهو على حق لا محالة فى الجزء الاول من نظريته ولكنه غير محق فى الجزء الثانى وهو بهذا يواصل نفس الغموض الذى عرفته الدول الاسلامية فى الماضى . ولعل الكوارث التى ألمت بباكستان متأتية فى معظمها من هذا التفكير الذى يقر ايجاد دولة باكستان ويتحمس لها ثم يضعفها بمثل هذا الجزم . وهو يؤول بالضبط الى عدم وجود أمة قادرة عن الدفاع عن كيان الدولة فيقع التفاوت بين هذه وتلك فاما ان تكون الامة أكبر من الدولة او ان تكون أصغر منها (وجود العصبية) .

3) توسع الدول المجاورة والكيد للدولة المعنية مما يطيح بالدولتين والامثلة عديدة منها ما سعى اليه مسنيسا من القضاء على قرطاج للتوسع ولكن الواقع أثبت أن رومة أطاحت بالدولتين وجعلت افريقيا الشمالية تحت نير استعمارها قرونا وقرونا .

4) ان الثالوث الذى كان يكون سكان البلاد لم يكن فى وقت من الاوقات متفاعلا وهو الحضر والبدو الرحل والفلاحون (ما يسميه ابن خلدون بسكان

الضواحى : L'arrière - Pays . وهو الذى أنشأ التناحر بين هـذه الفئات واستفلحت من أجله أنواع القبلية والعروشية والعنصرية .

5) ان ما ينشأ عن الطبقة الحاكمة من ظلم وجور وأنانية وتكـالب علـى الكسب وتقلص للروح الوطنية كان سببا لا فى تدعيم أسس نوع من الدولة الوطنية بل فى انهيارها . ولنذكر هنا دولة قرطاج التى ظهرت هذه العيوب فى طبقتها الحاكمة حتى أن حنبعل عندما وجد خزائن الدولـة فـارغة سـن قانونا جبائيا لجمع الاموال ومحاولة مقاومة رومة ولكن هذه الطبقة الحاكمـة بأمرها تآمرت عليه وقررت تسليمه الى عدوته وكـانت النهايـة أن سقـط السقف على الجميع . زد على ذلك ان هذا المجتمع كان يتصف بعدوان البعض على البعض الآخر وتكاثر الحسد والحقد بين الافراد علاوة على تفشى الجهل والفقر والمرض فى فئات عديدة مما يعطل تواصل الحضارة (ما يعبر عنه ابن خلدون بانقطاع السند) وهو يتمثل فى تنكر الاجيال بعضها لبعـض وعـدم الاعتراف بالقيم وينشأ عن ذلك تقلص العمران اذ « الدولة والعمران كما يقول ابن خلدون أمران متلازمان » وتنهار الدولة او تسير على نحو لا يتماشى مع روح الدولة الوطنية .

هذه هى العوامل التى حالت دون قيام الدولة الوطنية فى بلادنا وقد أمكن فى فترة الكفاح الوطنى أزالة العراقيل لنشوء الدولة الوطنية بأتم معنى الكلمة وتحققت فى عهد الاستقلال كل الاسباب التى تجعل أسس هذه الدولة مكينة وما على الاجيال الحاضرة واللاحقة الا ان تأخذ بعين الاعتبار السلبيات التى ذكرناها حتى تتجنب الكوارث التى لحقت بالبلاد فى العصور الماضية وتكون فى مستوى المسؤولية التى قلدوها اياها ومكنوها منها الشهداء الذين سقطوا من اجل أن تحيا تونس أمة قادرة على الدفاع عن كيان دولتها .

البشير بن سلامة

★ **السجن داخل الكلمـات**

أهدانا الشاعر الصديق محيى الدين خريف مجموعتـه الشعريـة الجديدة : **السجن داخل الكلمات** وهى من منشورات وزارة الاعـلام **بالجمهورية العراقية** . نهنئه بهذا المولود الجديد ونتمنـى له اطـراد نشر ما تجود له به قريحته الفياضة .

الانسان والخطيئة

شعر : محمد منذر لطفي

ـ 1 ـ

أنت يا ذاتي الشقيه ..!
أنت .. يا دفقة ابداع ثريه
لم تاريخ الاسى يرسم فى عالمك
الرائع آلاف الظلال ..؟
لم يبدو سوطه الدامى بعينيك
سؤال ..؟
إن أراد الليل للاقمار .. والأنجم ..
والشمس الزوال
لا تضيعى انت فى درب الهزيمه
بل تحدى كل أبعاد الجريمه
لا تقولى : مات فى عينى الضياء
لا تقولى : ودعتنى الكبرياء
إنها بعضك .. يا ذاتى الشقيه
أنا أهواك رياحا شتويه
وأعاصير فتيه
تقلع الأرض ... وأبراج السماء
تتحدى البحر فى فصل الشتاء
أنت يا ذاتى الشقيه
أنت .. يا بدء خلاص الليل من أفق
البريه
أنت .. يا بعض حكايا البشريه
أنت يا ذاتى الشقيه

★

ـ 2 ـ

خلق الانسان حرا .. كالهواء
أينما كان .. وفى أى زمان
فلماذا شبح الـذرة .. والخوف ..
وأسراب الهوان ..؟
آن للانسان أن يطحن تاريخ القماقم
آن للنيران أن تأكل آلاف الجماجم
آن للطوفان أن يغرق صحراء
الطلاسم
ليطوف النور فى حقل الشتاء
ليعم الارض زيتون .. وقمح .. وإخاء
خلق الانسان حرا .. كالهواء
ولد الطفل نقيا .. كالضياء
كيف شق الليل فى النفس طريقه..!
فغدا الانسان شيطانا رجيم
ينفث الشر .. ويقتات الجحيم
أم تراه اتخذ الشيطان سترا .. ورداء

وهـو فى داخلـه مليـون طاغـوت مقيم ..! (١)

★

– 3 –

يا لآدم ..!
إنه أول انسان مشى درب الخطيئه
إنه انســان ذاك العصـر .. انســان الخطيئه
فسرت فى نسغهم .. فى نسغ أجيال رديئه
يا لحواء الجريئه ..!
جرعته السحـر .. فانفض الى الخلد يغامر
وهى فى روعتها .. قنديـل طيب .. ومجامر
إنها أغرته بالسر .. وليلى الضفائر
نفحته الحب .. صبحا ومساء
أسكرت فيه مصابيح الضياء
فعصى الله .. وولى ، يقطـف النبت الحرام
وهو فى داخله يعرف أبعاد المطاف
هبط الأرض .. وعاف
جنة .. أنهارها روح وراح وظلال
ملئت بالحب والأطياب والسحر الحلال
ومن الولدان والحور قناديل مضيئه
يا لحواء الجريئه ..!
يا لحواء الجريئه ..!
إنها ميلاد تاريخ الخطيئه
إنها بعضك يا آدم .. يا بدء الخليقه
وأنا .. نسلكما .. قصة أفكار طليقه
إننى انسان هذا العصر .. انســان الفضاء
قد طردت الانجم السوداء من أعماق ذاتى
وركبت الريح .. فالمجهول بعض من حياتى
لن أعيش اليوم فى لثم الخطيئه
لن أظل .. العمر .. أقتات التعاليم الرديئه
بل سأمحو عن جبين الكـون الـوان الخطيئه
ليطوف النور فى حقل الشتاء
ليعم الارض زيتون .. وقمح .. وإخاء
وصباح ولدت فيه النواميس المضيئه
صلبت فى لونه الناصع أبعاد الخطيئه

★

محمد منذر لطفى
سوريـا – حمـاة
22 / 9 / 1977

---

(١) إشارة الى النفس الامارة بالسوء.

مشكلة تأصيل الثقافة والحضارة التونسية

بقلم : محمود الزوادي

إن المقصود هنا بالاصالة الثقافية والحضارية هو جعل جوهر الثقافة والحضارة التونسية يتناسب فى نفس الوقت مع ما ينص عليه الدستور التونسى فى الفصل الاول والثانى حيث يعلن أن **الاسلام** دين تونس **والعربية** لغتها . وأن المجتمع التونسى المعاصر ينتسب الى أسرة المغرب العربى التى هى طبعا جزء من الأمة العربية .

وهدف الاصالة الحضارية والثقافية فى تونس يعنى أيضا تأكيد انتساب تونس **بحق وبدون تذبذب** الى الذاتية الحضارية والثقافية التونسية التى اكتسبها المجتمع التونسى بعد مجيء الدعوة الاسلامية الى ربوع شمال افريقيا والتى جعلت كل مجتمعات هذا الركن من افريقيا عربية واسلامية فى معظم مظاهر تقاليدها الرسمية وغير الرسمية .

إلى انتساب واع لا مقلد :

ولسائل أن يقول لماذا نثير مثل هذا الموضوع وتونس ــ كمجتمع وأفراد ــ ذات تقاليد وشعائر إسلامية وعربية . إن الذى أدعو إليه هنا هو الذهاب بمجتمعنا التونسى ــ إن اتفقنا طبعا على انتسابنا الحضارى والثقافى ــ إلى الرجوع إلى انتساب حضارى وثقافى **واع** ومتحمس إلى كل ما يشمله هذا الانتساب من عناصر . ففى رأيى أن كثيرا من ملامح انتسابنا الى التراث العربى الاسلامى أصبحت ملامح وشعائر تقليدية على المستوى الاجتماعى والفردى .

(*) ان بعض مظاهر التذبذب التى وصفها الكاتب فى دراسته ونسبها فى شيء من المبالغة الى المجتمع التونسى وخاصة الى بعض المثقفين كانت موجودة حقيقة قبل الاستقلال وبعده بقليل ولكنها فى تناقص الآن نظرا الى الاصلاح الذى أدخل على البرامج التربوية . وفى هذا السياق نشير على القارىء الكريم الرجوع فى هذا العدد الى الافتتاحية التى كتبها الاستاذ محمد مزالى والتى تعطى صورة صادقة لواقع الاشياء فى تونس وفى نظامنا التربوى بالخصوص .

وهكذا فان هذا الانتساب التقليدى خلو من الروح المتقدة والدوافع الداخلية الملتهبة والتفهم المتفتح . والتقليد غالبا ما يخلق بلادة ذهنية اجتماعيا وفرديا وتصبح نتيجة لذلك سلوكات الافراد شعائر خاوية من التفهم العميق لأصول عناصر التراث الثقافى والحضارى للمجتمع الذى تنتسب اليه الافراد .

فالمجتمعات الصناعية المتقدمة مثلا تعيش منذ احقاب مرحلة تقليدية فيما يخص انتسابها الدينى . حدث ذلك خاصة بعد الاكتشافات العلميـة التى تصادمت مع الكنيسة . وبانتصار سلطة العلم كل يوم منذ القرن السابع عشر ضعفت هيبة الكنيسة والدين بصفة عامة فى كل من أروبا وأمريكا الشماليـة حيث زحفت ركاب العالم بخطى عملاقة . ونتيجة لذلك أخذ أهل أروبـا وأمريكـا يبتعدون شيئا فشيئا عن التأثيرات الدينية التى عوضتهـا التـأثيرات التى ساهمت بها الاكتشافات العلمية المتصادمة فى كثير من الاحيـان ظاهريـا أو عمقيا مع التفسيرات والقيم الدينية . لكن انتصار سلطان العلوم لم يـؤد الى جعل معظم أهل أروبا وأمريكا ملحدين . وانما الذى حدث هو **انتشار عقليـة التقليد الدينى** بين سواد أفراد المجتمعات الاروبية والامـريكية المتقـدمة . إن هذا الموقف التقليدى يتلخص فى كون انتساب معظم افراد شعـوب أمريكـا وأروبا المتقدمة الى الديانة الكاثولكية او البروتستينية ينقصه التفهم الواعى والتحمس المتأجج حيال هاتين الديانتين الاكثر شيوعا فى تينك القـارتين . إن هذا الوضع أدى الى ما يسميه علماء الاجتماع بظاهرة « الشعائرية » (1) : Mitualism إن هذا المفهوم يشير الى ان المقلد الدينى سواء كان مسيحيـا أو مسلما أو غيرهما طالما يجره التقليد الى « الشعائرية » فى سلوكاته وعقائده الدينيـة .

و « الشعائرية » تعنى خلو سلوك الفرد المتدين **تقليديا** من عمق فى العقيدة والتفهم والانتساب القوى للديانة التى ينتسب اليها الفرد المقلد .

خلال لقاءات وأحاديث وملاحظات هنا فى أمريكـا الشمالية اكتشفت مـا للتقليد من انعكاسات على سلوك الفرد وعقله المتهيىء للتفكير والنقد والتفهم لدينه . إن المسلمين الجدد من أبناء أمريكا الشمالية الذين قابلتهم وتحـدثت معهم لهم مثل مبين للفرق بين المتدين تقليديا والمتدين عن تفهم وعمق ناتـج عن التحليل والمقارنة التى سبقت دخول هؤلاء الى الدين الاسلامى . ومقارنة

(1) انظر خاصة نظرية العالم الاجتماعى الامريكى Ro Mertron

بسلوكهم وعقائدهم الدينية الاسلامية فاننا نحن التونسيين فى شمال أمريكا ، مثلا ، لنبدو كمقلدين فى انتسابنا الى الاسلام . فكثير من سلوكاتنا الدينية ضرب من « الشعائرية » التى تخلو من العمق الدينى وبالتالى فهى سطحية دينية كان سببها الاكبر هو انتشار عقلية التقليد الدينى لدينا . والتقليد على المستوى الفردى والجماعى يصبح خطرا على صلب الحضارات اذا هو تفشى فى كل مركبات الهيكل الحضارى للشعوب (2) وعناصره .

القضية الحضارية فى المجتمع التونسى المعاصر :

إن المجتمع التونسى ، ككثير من مجتمعات عالمنا المعاصر عصريها ونامیها ، يمر منذ أحقاب بمرحلة تقليدية فيما يخص التراث العربى والاسلامى . أعنى هنا ان انتسابنا الى هذا التراث خال من الروح المتوقدة والحماس المبنى على اقتناع واع وتفهم متين . هذا الموقف التقليدى الشائع بين سواد الشعب التونسى يمكن أن يلخص فى قولنا إننا عرب مسلمون وتونسيون لأننا وجدنا أنفسنا هكذا منذ الطفولة » .

ولهذا الفتور طبعا أسباب يمكن أن تفسر ظاهرة عدم الانتساب اليقظ لدى التونسيين حيال التراث العربى والاسلامى . من هذه الاسباب تقلص الحضارة الاسلامية ـ العربية وجمودها فى الأحقاب الاخيرة خاصة عند احتلال الغرب للمجتمعات العربية ـ الاسلامية فالمغلوب ، كما قال ابن خلدون ، عادة يقلد الغالب . فالشعب التونسى تكونت له مركبات النقص حيال عناصر حضارته وذاتيته كلما حاول أن يقارن حضارته المهزومة بمظاهر حضارة سيده الغالب : الغرب المتمثل خاصة فى فرنسا .

ومما زاد معظلة المركبات النفسية والحضارية التى يجدها المرء عند التونسيين سوءا هو التأثير الثقافى الذى تعرض ويتعرض اليه التونسى فى المدارس والجامعات التونسية وغيرها . إنه ليس نادرا خاصة قبل الاستقلال أن نجد تونسيين مثقفين ثقافة فرنسية بحتة بما فى ذلك معرفة كتابة اللغة الفرنسية وقراءتها وجهل تام تقريبا بكتابة العربية وقراءتها وما الى ذلك من عناصر الثقافة العربية .

(2) أقل ما يقال فى انتشار جو التقليد بين أفراد أى أمة هو تفشى موقف اللاإندماجية أو l'Apathie ـ بين الناس الذين تسطو عليهم عقلية التقليد ـ حيال أهمية وأساسية المركبات الحضارية والثقافية واللغوية .

فهؤلاء التونسيون المثقفون ثقافة فرنسية بحتة يصعب عليهم أن يكونوا ذوى أصالة وتحمس واع – لا مقلد – الى الذاتية والشخصية التونسية المنتسبة الى تراث عربى إسلامى (3) .

وخريجو المدرسة الصادقية أنفسهم ذوو الزاد الثقافى المتزن – حسبما يبدو – بين الزاد العربى – الاسلامى والاوروبى لم يخلوا فى كثير من الحالات من نوع من التذبذب والانقسام فى انتسابهم الحضارى . وهذه العينات فى مجتمعنا التونسى كان لزاما أن تلفت نظر المسؤولين عندنا الى أهمية العامل الثقافى فى تكوين شخصية وإتجاهات الفرد حيال قضية الانتساب الحضارى . وهكذا فان أى رجوع الى أى إنتساب قوى وأصيل فى تونس للتراث العربى الاسلامى لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار ما للتأثير التربوى فى المدارس والجامعات التونسية من دور فى تأصيل الذاتية التونسية .

التذبذب فى تربيتنا القومية :

وتحصلت تونس على الاستقلال سنة 1956 ، ولكن تذبذب انتسابنا الى حضارة وتراث معينين لم ينته . ظلت تونس فى سياستها نحو الشعوب العربية الاسلامية غير واضحة المواقف . فاذا تحسنت خاصة العلاقات السياسية مع الدول العربية الاسلامية أظهرت الحكومة التونسية إنتماء أكثر الى التراث العربى الاسلامى . ولكن سياستنا ترجع الى التذبذب والغموض اذا تدهورت هذه العلاقات من جديد مع بعض إخواننا العرب المسلمين .

أما علاقاتنا مع فرنسا والغرب عامة فلا يسودها مثل هذا التذبذب والغموض الذى تعانيه وعانته علاقتنا مع العالم العربى .

إن سياستنا نحو الغرب سياسة تفتح غير مقيد . إنه مبدأ سياستنا التونسية . أما تفتحنا نحو الشرق العربى فيحيط به الحذر ونوع من الخوف .

---

(3) فالانتساب الصلب الى أى تراث حضارى معين مربوط فى نظرى بالتكوين الثقافى الذى يتلقاه المرء . فكلما كان هذا التكوين منسجما مع مركبات المجتمع كلما كان الانتساب الحضارى لدى الفرد متناسقا ومنسجما مع العناصر الحضارية للمجتمع . وطالما بالتالى كان هذا الانتساب ثابتا شامخا ومقنعا لمنتسبه . والعكس فى كثير من الاحيان هو الصحيح .

إن هذا الموقف السياسى الذى اتخذناه منذ الاستقلال مشين طبعا لشخصيتنا وتراثنا الحضارى الذى يعترف به الدستور التونسى كما سبق ذكره فى مفتتح هذا المقال .

رغم هذا الانحياز الى جانب الغرب على حساب الشرق العربى فانى أساند مبدأ التفتح نحو الحضارة الغربية . ولكن يجب أن تتغير طريقة تفتحنا على الغرب التى اتبعناها فى تاريخنا الحديث . إن تفتحنا غير المدروس نحو الحضارة الغربية خاصة الفرنسية منها يجب أن يفحص بجدية واعية .

إن مدارسنا وجامعتنا يجب أن تكون منطلق التحول . إن هذه المؤسسات التونسية القومية كانت قد فتحت أبوابها بطريقة هلوعة الى عوامل التأثير الحضارية الغربية . فالمثقف التونسى من خريجى هذه المعاهد كان فى كثير من الاحيان أكثر تمكنا من الثقافة الفرنسية . فهو يتقن اللغة الفرنسية أكثر من اتقانه للعربية الفصحى وهو أيضا ذو إطلاع لا بأس به على الاتجاهات والقيم وايديولوجيات الحضارة الفرنسية ذات التأثير المباشر على سلوك وتفكير المثقف التونسى ذى التكوين الفرنسى .

وهذه السياسة التربوية القومية أدت فعلا الى إنشاء عدد كبير من التونسيين الذين يعرفون أكثر عن حضارة المجتمع الفرنسى مقارنة بمعرفتهم عن المجتمع العربى الاسلامى .

إن مثل هذه البرامج التى تدرس فى مدارسنا وجامعاتنا التونسبة وتخلق مثل هذا الانحياز الثقافى فى أبناء تونس وبناتها لا بد أن تستأصل اذا أردنا بوضوح وصراحة وبغير تذبذب انتسابا وانتماء الى حضارة وشخصية إسلامية عربية .

إن هذا التكوين الثقافى الاجنبى رأيته شخصيا ، وبدون شك رآه آخرون يخدش شخصية التونسى . لاحظت بين أبناء تونس فى الخارج من يعارض الانتساب الى حضارة مستعمره عوضا عن حضارته نفسها . ان هذا التونسى كان يقول : « إننا ـ نحو التونسيين ـ نتكلم الفرنسية عندما كان يسأل عن اللغة المستعملة فى المجتمع التونسى . إن أمثال هذا التونسى المحاول لانكار عناصر ذاتيته كثيرون . وتأثير الثقافة الخالية من العناصر الاساسية للشخصية والحضارة التونسية العربية الاسلامية لهى العامل البارز لاحداث هذه المحاولات التنصلية من الذات والاصالة العربية الاسلامية التى يجدها ـ وبكل أسف ـ منتشرة بين أبناء تونس وبناتها داخل تونس وخارجها .

وعرفت أيضا فى أمريكا الشمالية تونسيين خريجى المعاهد التونسية فى فترة ما بعد الاستقلال . إن تكوين كثير من هؤلاء لمشين جدا فيما يخص الثقافة العربية الاسلامية . وهذا التكوين المشين جعلهم ـ إذا كانوا من هؤلاء الذين يريدون الانتساب الى التراث الاسلامى العربى ـ غير قادرين على انتساب واع ومتين الى الاسلام والعروبة . فمحاولاتهم الانتماء الى هذا التراث تعد فى نظرى ضربا من التقليد بدلا من ان يكون انتسابهم مبنيـا على **تفهم مثقف** لمكونـات تراثهم الذى ينتسبون اليه . إن التـونسى الجـاهل بأسس عنـاصر ثقـافته وحضارته لا يستطيع أن يدافع برؤية واضحة ـ غير مقلـدة ـ عن مقومـات يستطيع بها أن يعزز تصورها وإنتسابه الى التراث العربى الاسلامى أمام نفسه وأمام الآخرين .

إن التونسيين المنتسبين بصورة **تقليدية** الى المكونات العربية الاسلامية لا بد أن يجدوا انفسهم فى مواقف حرجة امام أنفسهم وأمام الآخرين اذا ما أرادوا أن يدافعوا عن هذا التراث الذى له مساهمته الانسانية فى الحضارات العالمية ومن أهمها الحضارة الغربية التى كان لعرب ومسلمى الاندلس خاصة الفضل الكبير فى الدفع بهذه الحضارة الى عصر النهضة La Renaissance وما بعده .

إن التونسيين الاكثر تأثرا بعناصر الثقافة الفرنسية طالما يجدون أنفسهم يجهلون الكثير عن تراثهم العربى الاسلامى الذى كانت له مساهمة هامة فى المجال العلمى والقانونى والمعمارى ... الخ . وإن مثل هذا التكوين الثقـافى المنحاز الى الثقافة الاجنبية على حساب الثقافة الام يجعل التونسى جاهلا حتى بالتراث الادبى للامة العربية فى مقابل معرفة أكثر للادب الفـرنسى مثـلا . فلامارتين وهيجو وفلتار شخصيات أدبية معروفة أكثر من بعض أدباء العربية كالمتنبى وشوقى والشابى .

إن الاستمرار فى هذا التكوين الثقافى للتونسى الناشىء لمشين لشخصية التونسى الذى ينتمى الى حضارة عربية إسلامية يؤيدها الدستور التونسى فى أوائل فصوله . وبالتالى فان هذه السياسة التربوية لا يمكن لهـا طبعـا أن تعنى التفتح الذى له عادة نتائج إيجابية تفوق السلبيات .

إن مثل هذه النظرة الى « فكرة التفتح » لنظرة ساذجة . فهى نظرة سطحية لا ترى كل انعكاسات مثل هذا النوع من التفتح الثقافى على شخصية الفـرد وطبقات المجتمع المعرضة الى التأثيرات الثقافية الاجنبية العديدة .

إن قضية الازدواج الثقافي في حد ذاتها لم تبت في ايجابيتها بعد الدراسات العلمية في علم النفس والاجتماع (4) . فما بالنا بالثقافة الاجنبية التي يتلقاها التونسي وتجعل منه مثقفا ملما ومتأثرا أكثر بالثقافة الاجنبية مقارنة بثقافته القـومية ؟!

إن انعكاسات مثل هذا الزاد الثقافي على التونسي أو غيره من أبناء وبنات المجتمعات الاخرى التي لها مثل هذه البرامج التعليمية ذات الطـابع الاجنبـي *ينعكس في شخصيات الافراد ومجتمعاتهم من حيث* الانتســاب الحضــاري ومكونات الذاتية لهؤلاء الافراد .

مسؤولية وزارة التربية في بناء أصالتنا الثقافية :

إن مشكل الانتساب الواعي الى الحضارة الاسلامية العربية لا يمكن انكاره بسهولة في مجتمعنا التونسي المعاصر . ان كل محلـل لهـذه الظاهـرة فـي مجتمعنا لا بد أن يجد لها عوارض عديدة تترجم وجودها بين طبقـات الشعب بطريقة لا تقبل الشك والتردد . والعامل الثقافي الاجنبي في تونس هو السبب الاول في نظري ، الذي جعل انتسابنا الحضاري مشكلة لكثير من التونسيين داخل الوطن وخارجه .

ومن هنا فأي أمل في اصلاح هذا الوضع لا بد أن يبدأ من التكوين الثقافي الذي يتلقاه كل تونسي منخرط في المعاهد التونسية التربوية بكل مراحلها . وهكذا فان دور وزارة التربية القومية في الاصالة الثقافية التونسيـة دور ذو أهمية أساسية في إحداث هذا النوع من التغيير الحضاري الذي يحتاج اليـه مجتمعنا التونسي المعاصر . ولكن وزارات التربية القـومية التي أنيطت بهـا هذه المسؤولية لم تكن ذات اتجاه واضح وسياسات واحدة .

كان من بين هذه الوزارات التربوية القومية الوزارات المتذبذبة والمترددة حيال مبدإ سياسة تربوية قومية (5) (بمـا في ذلـك العنـاصر الاسـلامية

---

(4) إن دراسات أخيرة في بريطانية وكندا والولايات المتحدة تؤكـد هـذه الملاحظة .

(5) انظر المقابلة مع السيد إدريس قيقة في ص 30 ـ 32 .
Action : Supplement : Jeudi 12 Sept. 1974 Special 9ème Congrès1974

العربية) تعطى الناشىء التونسى الجديد تكوينا متينـا ومحترمـا من الاسس الحضارية والثقافية التى ينتسب اليها المجتمع التونسى . إن برامجنا التربوية مع الاسف لم تكن دائما واضحة وجـريئة . إن كثيـرا من وزارات التـربية التونسية بعد الاستقلال كانت تعكس شبح الخوف الذى كـان يقرنـه بعض مسؤولى وزارات التربية بسياسة تربوية تعطى زادا ثقافيا كافيا من الحضارة الاسلامية العربية للتونسى الناشىء .

إن كثيرا من مسؤولى وزاراتنا التربوية بعد الاستقلال كانوا يرون إدخال العناصر الاسلامية والعربية بصفة كافية فى البرامج التعليميـة ضربـا من الرجوع الى الوراء والى التخلفية الاجتماعية والنفسية و ... و ... ولهذا فان البرامج التى أدخلوها فى بعض مراحل التعليم التونسى لم تكـن قـادرة على تأصيل وتمتين ثقافة التونسى الناشىء ولم تكن قادرة حتى على تغيير بعض المواقف لدى طلابنا وتلامذتنا حيال مادة العربية . مثلا فمعروف لدينا قبـل الاستقلال وبعده أن كثيرا من أبنائنا وبناتنا التونسيين يتحدثون عن مـادة العربية مستعملين كلمة Arab عوض عن العربية . وإن هـذه الظـاهرة استمرت بعد الاستقلال بين ابنـاء وبنـات تـونس خريجى المعـاهد القومية التونسة . فان التونسى الناشىء المثقف الذى ما زال يستعمل كلمة Arabe عوضا عن كلمة العربية بعيد عن أن يكون قد تلقى وتأثر بتـربية قـومية فى المعاهد التونسية تجعله يغير ما ورثناه من الاستعمـار الثقافى الفـرنسى من أنماط تعبيرية ـ فرنسية نستعملها بدون قيود . فحتى فى حديثنا عن العربية كثير منا **يفضل** فرنسة الكلمة فتصبح rabe (6) !

لكن هذا لا يعنى أن كل وزارات التربية القومية لفترة ما بعد الاستقـلال كانت غير متحمسة تحمسا واعيا حيال وضع سيـاسة تربـوية قـومية تقى وتحفظ التونسى الناشىء خاصة من الصراعـات والمشاكـل التى تعـرضت وتتعرض لها شخصية التونسى عندما تؤدى به التأثيرات الثقافية الاجنبية الى انقســامـات فى الـذات والشخصيـة القـومية والى غـربـة حضـاريـة : Aliénation Culturelle يعيشهـا التـونسى الذى وقـع فريسة الاستعمار الثقافى والحضارى .

---

(6) انظر مقالى « الازدواج اللغوى عندنا » ، « الفكر » ، ماى 1976 .

من وزارتنا التربوية التى تحاول تأصيل الثقافة والحضارة التونسية وزارتنا الحالية التى يرأسها السيد محمد مزالى . إن هذا الاخير آمن ويؤمن بأن أهداف وزارة التربوية القومية هو تأصيل الجيل التونسى الناشىء عن طريق البرامج التربوية التى يتلقاها المتعلم التونسى ابتداء من المرحلة الابتدائية الى التعليم العالى .

فسياسة التعريب التى تحاول وزارة التربية الحالية تطبيقها ونشرها أكثر فأكثر فى صلب البرامج التربوية التى ما زالت تشكو من فقر مضن فى ميدان التعريب رغم جهود مسؤولى هذه الوزارة وحماسهم .

إن افساح المجال أمام تعريب لغة المعاهد التربوية التونسية للبنة أساسية فى تغيير وتأصيل محتوى الثقافة والحضارة التونسية . إنه لمنطقى أن يتقن التونسى لغته ويتعرف على مكونات حضارته وتراثه القومى قبل أن يتقن لغة أجنبية ويتعرف ويتأثر بمكونات حضارة غير قومية .

ان نفس هذا المنطق هو الذى تتبعه المجتمعات المتقدمة التى نريد نحن أن نلحق بركبها . إذا كنا نحبذ تقليد المجتمعات المتقدمة فى كثير من مظاهر حياتها واتجاهاتها فلماذا لا نقلدها فى سياستها التربوية التى تنشىء عليها أبناءها وبناتها ؟!

إنه لواضح لكل محلل بصير أن سياسات الدول المتقدمة التربوية سياسة تأخذ بعين الاعتبار فى المقام الاول مركبات وعناصر الثقافة والحضارة التى **ينتمى اليها المجتمع .**

إن الطفل الفرنسى أو الامريكى ، مثلا ، يتعلم فى المدرسة لغته قبل تعلم لغة أو لغات أجنبية . وكذلك الشأن بخصوص التراث الحضارى والتاريخى . فنابوليون والثورة الفرنسية ولنكن والثورة الامريكية من المعالم الحضارية التى يبنى عليها المزاج الحضارى للطفل . فمثل هذه الاحداث التاريخية والحضارية تخلق فى نفس الطفل انتسابا حضاريا يبث فى النفس الشعور بالعز والمجد . إن علماء النفس يؤكدون على أهمية التأثيرات الاولى التى تتعرض اليها **شخصية الطفل ذات التشكل السهل فى المرحلة الاولى من الطفولة وكثير من** علماء النفس يذهبون الى القول بأن التأثيرات الاولى يستمر تأثيرها على

شخصية الفرد حتى ما بعد الكهولة (7) . وهكذا فان عدم تزويد التونسى الطفل والشاب والكهل بزاد حضارى وثقافى قوميين له مخاطره العديدة التى لا يمكن أن تخفى عن عين كل متفهم لأهمية العناصر والمكونات الحضارية والثقافية فى تكوين الفرد والمجتمع وعلاقات الاول بالاخير .

ومع الأسف فان سياستنا التربوية بعد الاستقلال تعكس **تذبذبا واضحا** إزاء البت الحاسم فى قضية العنصر اللغوى والثقافى والحضارى الذى كان يتحتم على الجيل التونسى لفترة ما بعد الاستقلال أن يتغذى بفخر وعزة بلغته العربية وتراثه العربى الاسلامى . وتونس كدول أخرى نامية ، ما زالت تشكو من ظاهرة عدم الفهم العميق لأهمية الجانب اللغوى والثقافى والحضارى لاى مجتمع ولأى فرد ينتسب اليه . وإذ تستمر الدول النامية فى هذا السلوك فى برامجها التربوية فانها تدل بذلك على بقائها تحت الاستعمار الثقافى (8) الذى لا يرحل بسرعة بعد زوال الاستعمار السياسى والعسكرى من ربوع البلاد النامية .

فالرجوع بأجيالنا الناشئة التونسية الى أصالتها الحضارية يرتكز إذن كما هو الشأن فى المجتمعات المتقدمة على إتقان لغة الوطن والتشبع من الزاد الحضارى القومى قبل أى لغة أجنبية وتراث حضارى غير قومى . إن علماء النفس والتربية والاجتماع فى الدول العصرية المتقدمة قد أكدت أهمية العناصر اللغوية والثقافية والحضارية (9) القومية لأى فرد ينتسب الى حضارة وثقافة معينتين . ان سياسة التعريب التى تحاول وزارة التربية الحالية تطبيقها وتأصيل البرامج التربوية للناشىء التونسى المتعلم لخطوة على طريق تكوين

---

(7) إن فرويد من هؤلاء العلماء الذين أكدوا هذه الحقيقة عن الشخصية الانسانية .

(8) انظر Le Monde ل 26 / 10 / 77 ص 23 فى تلخيصها لأهم المواضيع التى ناقشها الملتقى العالمى حول الاستعمار الثقافى أو الامبريالية الثقافية.

(9) إن أهمية العناصر الثقافية والحضارية واللغوية لسلوك الشخص وبناء شخصيته ترجع الى أن القيم والتقاليد والاعراف التى يتعلمها الفرد فى حياته لها دورها فى توجيه سلوك الفرد وبناء أسس شخصيته . فأى أعراف وقيم وتقاليد أجنبية تتفشى بين أفراد مجتمع لا بد أن يكون لها انعكاسات القيم والاعراف والتقاليد القومية التى يتعرض لها الفرد .

شخصية تونسية مثقفة تتناسق مع أصول ومكونات الثقافة والحضارة التونسية ذات الطابع الاسلامى العربى .

المعاهد التربوية الشرقية وتعريب لغة الشرقى المثقف :

إن قضية تعريب لغة التونسى المثقف ليست طبعا مستحيلة التحقيق كما يعتقد الكثير منا . والفاحص للمجتمعات العربية ولهجات متكلميها يجد أن تأثير المعاهد التربوية هو العامل الاول المؤثر على نسبة الكلمات ذات الاصل العربى التى يستعملها العربى من شمال افريقيا أو من الشرق العربى فى كلامه العادى باللهجة المحلية .

والملاحظ للظاهرة اللغوية فى عالمنا العربى المعاصر يستطيع أن يعثر على عينات تثبت ما لتأثير التربية القومية على لغة المثقف العربى . إن مثقفى العالم العربى يمكن تقسيمهما الى قسمين باعتبار قدرة الفرد على استعمال اللغة العربية بسهولة :

1) مثقفى المشرق العربى ، و 2) مثقفى المغرب العربى .

إن خريجى المدارس والجامعات العراقية والمصرية والسورية واللبنانية لهم عادة سهولة فى التعبير بالعربية الفصحى أو الدارجة عن شؤون الحياة أو المسائل العلمية . أما خريجو معاهد وجامعات المغرب العربى فنادرا أن تجد بينهم من لا يخلط كلامه الدارج والفصيح بنصيب لا يستهان به من الكلمات والعبارات الفرنسية . والمرء يلاحظ هذا الفرق اللغوى داخل العالم العربى وخارجه فالتونسى والجزائرى والمغربى طالما يزيد من نسبة الكلمات والعبارات الفرنسية عندما يتحادث خارج بلاده مع التونسى والجزائرى والمغربى خاصة اذا كان بلد الاستقرار خارج الوطن يتكلم الفرنسية .

أما خريجو المعاهد الشرقية فتستمر بصفة عامة صفاوة تعبيرهم الدارج والفصيح من الكلمات والعبارات الاجنبية اذا ما استقروا خارج بلادهم .

ومن ناحية أخرى فان تشبع الشرقى العربى بعناصر ومكونات الحضارة العربية فى المعاهد التربوية والمحيط الاجتماعى تجعله عادة ذا انتساب أمتن وأوضح الى الامة العربية الاسلامية من انتساب أبناء الشمال الافريقى . ويلاحظ باطراد مثلا هنا فى منريال عدم انخراط أهل المغرب العربى فى المؤسسات والنوادى العربية العامة . وكثير من المغربيين العرب يفسرون عدم اشتراكهم

فى هذه المنظمات بسبب عدم سهولة التفاهم مع الشرقيين العرب بعربيتهم الدارجة التى قد تختلف كثيرا مع دارجة أخرى من الشرق العربى (مثلا لهجة قطر أو العراق ...) . وظاهرة تعدد اللهجات ظاهرة اجتماعية عالمية نجدها فى أرجاء كل مجتمع حضارى معين . فالمجتمع الفرنسى والامريكى لهما ظاهرة تعدد اللهجات . فاللهجة البارسية والمرسيلية بينهما اختلاف ملحوظ قد لا يسهل التفاهم السريع بين متكلميهما . ولهجة شمال الولايات المتحدة تختلف عن لهجة سكان تكساس أو كنتاكى . فالعالم العربى كوحدة حضارية لا بد أن ينتشر فيها عدد من اللهجات المحلية تضاهى تلك التى نجدها فى المجتمع الامريكى أو الفرنسى .

ولكنى لاحظت شخصيا أن أبناء المغرب العربى الذين لهم زاد من العربية الفصحى وعناصر الحضارة العربية الاسلامية لا يجدون صعوبات فى التفاهم مع الشرقيين سواء بالدارجة أو العربية الفصحى . وهذا النوع من ابناء المغرب العربى هو الذى ينتسب ويشترك أكثر فى المنظمات العربية فى منريال .

إن معظم أرجاء العالم العربى قد رزحت تحت نير الاستعمار الاجنبى خاصة الفرنسى والانقليزى مثلما وقعنا نحن تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية. ومعظم المجتمعات العربية قد تحصلت الآن على الاستقلال السياسى والعسكرى. ولكن الاستعمار الثقافى ما زال خانسا فى بعض المجتمعات العربية وبارزا واضحا للعين فى مجتمعات أخرى من الوطن العربى . إن تونس فى نظرى لم تحصل بعد على استقلالها الثقافى . إن هذا الاستعمار واضح المعالم فى عقلية الانسان التونسى وفى تركيب مجتمعه . والمؤسف فى كل هذا أننا **ما زلنا فى سبات** شبه العميق حيال قضبة مصيرية مثل قضية الاستقلال الثقافى .

إنى شخصيا أتطلع الى ذلك اليوم ــ وأخاف أن يكون تطلعى هذا ضربا من **التمنى** ــ الذى تحصل فيه تونس على الاستقلال الثقافى . وأدرك أن هذا الهدف غير سهل المنال فى الظروف الحالية للتركيب العالمى . أدرك أن التخلص والتحرر من الاستعمار الثقافى أصعب بكثير من التخلص من الاستعمار الاقتصادى والسياسى والعسكرى .

إن الصعوبة الكأداء التى يلاقيها كل مجتمع يريد التحرر من الاستعمار الثقافى تكمن فى **طبيعة** هذا النوع الخاص من الاستعمار المتخنس . إن

مكونات هذا الاستعمار تجعله قادرا على البقاء فى المجتمعات المتحررة عسكريا وسياسيا واقتصاديا بسبب إنصهار واندماج مركباته (كاللغـة ، والقيـم ، ونمط الحياة ... الخ ...) فى صلب شخصيات أفراد المجتمعات التى نالـت الحرية العسكرية والسياسية والاقتصادية . وهذه **الطبيعة المتخنسة تجعـل** التعرف عليه فى هذه المجتمعات ــ وكثير منها من دول العالم الثـالث ــ غير سهل القيام به . وهكذا فان تفاؤل المرء بصدد الحصول على الاستقلال الثقافى فى تونس يجب أن يكون **محدودا** جدا خاصة اذا استمـر **التذبذب** عندنا من حيث انتماؤنا الحضارى ومكوناتنا الثقافية . إن بصيص الامل ــ رغم كل مـا ذكرت أعلاه ــ ما زال قائما وقادرا على انجاز ما يبدو الآن شبه المستحيل . إن زيت فتيل هذا البصيص من الامل هو أصالة محتوى البرامج التربوية لغـة وثقافة وحضارة فى معاهدنا التونسية من الابتدائية الى العالية . إذا أنجزنـا هذه الخطوة فى ظرف الحقبات الثلاث التالية فنكون عندئذ قد قربنا مما يبدو الآن بعيدا فى الافق الممتد !

تأصيل لغة المحيط التونسى :

إن تأصيل المجتمع التونسى لغة وثقافة وحضارة لا يمكن أن يصبح حقيقة إجتماعية وفردية ملموسة اذا لم تتعاون بقية عناصر المجتمع التـونسى مـع بذور التأصيل التى تريد زرعها وزارة التربية الحـالية أو أى وزارة أخـرى تتلوها لها نفس الحماس التأصيلى إزاء المجتمع التونسى .

فبرامج التأصيل اللغوية والحضارية والثقافية لوزارة التربية سوف تبقى مشلولة المفعول اذا هى لم تجد المحيط التونسى خارج المعاهد التربوية امتدادا متناسقا ومتعاونا معها . وبالتالى فان أى جهد جاد لتأصيل المجتمع التونسى يجب أن يمتد بفاعلية وحماس الى زرع بذور التأصيل خارج معاهدنا التونسية التربوية . هذا يعنى مثلا تعريب **لغة الادارة التونسية على اختلاف انواعها من** شركات الحافلات عندنا التى ما زالت محافظة على الفرنسية من كتابة تذاكـر **المواطنين الأميين الى البنوك والمؤسسات الهاتفية التى ما زالت تنشر الدليـل** الهاتفى بالفرنسية وحدها بينما وقع نشر الدليـل الهـاتفى أيـام الاحتـلال الفرنسى بالعربية والفرنسية !

إن تعريب لغة الادارة التونسية يمكـن تحقيقـه تدريجيـا لـو كانت لنـا **سياسة شجاعة وغير متذبذبة** فيما يخص قدرة لغـة الضـاد على التعبيـر عن

شؤوننا الفردية والجماعية . وإن **استمرار** إستعمال اللغة العربية فى إدارات وزارة الداخلية لاشارة واضحة الى إمكانية اكتفائنا بلغة القرآن فى تسيير أمورنا ومعاملاتنا الادارية .

إن العائق فى نظرى لتعريب الادارة التونسية ناتج عن تصورات خاطئة وعقد نفسية سببها كلها استمرار بقائنا تحت قبضة الاستعمار الثقافى . وسنبقى بهذه التصورات الخاطئة والعقد النفسية ما لم نعمل **فرديا و حكوميا وآجتماعيا** على آستئصال هذه الامراض والانحرافات .

إن من تصوراتنا الخاطئة والشائعة بين كثير من مثقفينا ثقافة فرنسية هو اعتقادهم أن اللغة العربية هى لغة شعر وخطابة ... وهكذا فهى قاصرة عن القيام بالمعاملات والشؤون العصرية للانسان المعاصر . إن هؤلاء يردفون متهمين اللغة العربية بالتأخر .

إن اتهام لغة الضاد بالتأخر ضرب من الجهل فى حد نفسه . فاللغة ومدى قدرتها على التعبير عن مختلف أوجه الحياة مرآة أمينة لدى تقدم وقدرة متكلميها كشعب على مستوى كل الانجازات والنشاطات الانسانية . هذه العلاقة بين العنصر اللغوى والمجتمع تعنى أن اللغة تتقدم أو تتأخر بتقدم أو تأخر متكلميها . لذا فان المتهمين للعربية فى تونس بالتأخر يزوغون عن اتهام المتهم الحقيقى المتأخر الا وهو المجتمع التونسى . إن اتهام اللغة ــ بدلا من اتهام أنفسهم ــ هو تصور خاطىء للمشكل اللغوى عندنا . إنه حل رخيص لا يشفى ولا يقنع الا هؤلاء الذين يستمرون فى المحافظة على تصورهم الخاطىء.

إن هذا التصور الخاطىء لجوانب العنصر اللغوى عندنا يقترن ــ كنتيجة منطقية لذلك ــ بعقد نفسية على المستوى السلوكى الفردى حيال لغة الوطن . والفرنسية فهذه الاخيرة تجد إحتراما من التونسى يفوق فى كثير من الاحيان الاحترام الذى يوليه ــ اذا شعر بذلك ــ الى اللغة العربية . وشائعة كثيرا فى مجتمعنا التونسى مظاهر سلوكية تؤكد الاحترام الكبير الذى تتمتع به لغة فرنسا فى بلادنا .

فنشرات إحصائية أظهرت مثلا أن تلامذة الثانوى عندنا يطالعون عددا أكبر من القصص المكتوبة باللغة الفرنسية . وهذه الظاهرة تبدو أكثر انتشارا بين البنات . وإنى شخصيا لاحظت نفس الظاهرة عند فتياتنا التونسيات . وأذكر فى هذا الصدد حدثا وقع لى سنة 1965 فى دار الحزب . كنت انتظر مسؤولا

حزبيا لمقابلته وأثناء ذلك تلاقيت ببنت يوغسلافية جاءت تتعلم العربية فى تونس فى معهد بورقيبة للغات الحية Bourguiba School . وأثناء حديثنا ذكرت شاكية من التونسيين والتونسيات (خاصة) الذين يحاولون دائما مخاطبتها بالفرنسية بدلا من العربية التى جاءت لتعلمها فى المجتمع التونسى العربى .

وهذا الانحياز نحو تفضيل استعمال الفرنسية عند شبابنا وكثير من قطاعات مجتمعنا التونسى مربوط طبعا بالتكوين الثقافى المدرسى الذى تلته عقليات وتركيبات اجتماعية فى قلب المجتمع التونسى جعلت سمعة مرموقة لكل متكلم وقارىء بالفرنسية . ومع الاسف فهذه العقليات والتركيبات الاجتماعية لم نبدأ فى زحزحتها بطريقة جدية وعملية .

إن علماء الاجتماع يؤكدون أن ظاهرة التغير الحضارى والثقافى بطيئة الخطى نسبيا (١٥) . رغم هذا البطء فان انجاز تغيير ثقافى لغوى حضارى أمر ممكن فى تونس وأى مجتمع آخر اذا توفرت الشروط الكاملة لمثل هذا التغير الاجتماعى .

مهمة إضافية لوزارة الثقافة :

إن وزارة الثقافة عندنا يمكن أن تشارك هى الاخرى فى حركة التأصيل الثقافى واللغوى والحضارى . فكيباك Le Québec الفرنسية فى محاولتها للتأصيل والمحافظة على التراث الفرنسى لغة وثقافة وحضارة وسط اللغة والثقافة والحضارة الكندية الانقليزية أنشأت وزارة جديدة الى جانب وزارة التربية تدعى بوزارة التنمية الثقافية Le Ministère du développement Culturel ومهمة هذه الوزارة هى فرنسة المحيط فى أرجاء المجتمع الكيباكى بما فى ذلك طبعا جعل اللغة الفرنسية ـ أكثر فأكثر ـ عوضا عن اللغة الانقليزية ـ لغة الادارة والواجهات الاعلانية والمعاملات الاجتماعية بكل انواعها (١١) .

وفى تونس يمكن إنشاء مثل هذه الوزارة أو إعطاء وزارة الشؤون الثقافية الحالية دورا رسميا فى غرس بذور التأصيل اللغوى والثقافى الحضارى .

---

(١٥) انظر خاصة مفهوم The Culturvaliag عند Ogburn العالم الاجتماعى الامريكى المعروف .

(١١) انظر على سبيل المثال وثيقة La Politique québécoise de la Langue Française, Mars 1977 : gouvernement du Québec.

ونشاطات هذه الوزارة يجب أن تتجاوب مع المثقفين وغيرهم من طبقات المجتمع التونسى على السواء . فحملات التأصيل اللغوى والثقافى الحضارى يجب أن تهدف أولا بالذات الى توعية المواطن التونسى بذاتيته وانتسابه الى التراث العربى الاسلامى .

إن قضية الانتساب للتراث ـ لدى التونسى ـ يجب أن تخرج من حيز التذبذب والحياء الى حيز الافصاح والوضوع والافتخار حقا بالتراث الذى ننتسب اليه . فالاذاعة والتلفزيون والصحف والمجلات واللافتات الشارعية وغيرها من وسائل التوعية يجب أن تتعاون مع وزارة الشؤون الثقافية عندنا في تونس لنشر العناصر الاساسية للتراث الحضارى والثقافى التونسيين بين كل أصنافنا الاجتماعية .

ولقد شنت فعلا فى المجتمع التونسى منذ الاستقلال حملات قومية لتوعية المواطن صحيا وسياسيا واجتماعيا مثل الحملات التى شنت ضد وباء الرمد وغيرها من الاوبئة الصحية . وحملات بث فكرة تحديد النسل لدى العائلات التونسية ما زالت مستمرة ـ ولا بد أن تستمر ـ فى أرجاء كل المجتمع التونسى .

وعلى المستوى اللغوى والثقافى والحضارى فنحن فى تونس بحاجة ماسة الى حملات مشابهة **إن أردنا طبعا أن نقوم تذبذب انتسابنا اللغوى والثقافى والحضارى** الذى لا يزال يشكو منه مجتمعنا التونسى الى أيامنا هذه .

فوزارة الثقافة يمكن لها القيام بحملات هدفها توعية التونسيين بشخصيتهم وأسس ثقافتهم وحضارتهم . وهذه الحملات يجب أن تمس كل طبقات الشعب التونسى وليس الفئة المثقفة وحدها وهناك فئة خاصة من بين المثقفين تستحق أكثر العون من محتوى مثل هذه الحملات ذات الطابع الثقافى والحضارى .

إنى أقصد هنا ثلة مثقفينا من ذوى الثقافة الغربية والفرنسية خاصة .

إن التونسى المثقف بثقافة **معظمها غربى يجب أن لا يلام اذا كان يشكو عدم** رؤية واضحة مطمئنة حيال تراثه الثقافى والحضارى . إن هذا النوع من التونسى نلاقيه داخل المجتمع التونسى وخارجه وهو بذلك ليس بصورة خيالية ينسجها عقل الانسان . إن هذا الصنف يجهل كثيرا عن حضارته التونسية العربية الاسلامية فى حين أن له معرفة أوفر ـ خاصة عن طريق ثقافته المدرسية ـ للحضارة الغربية .

وهذا التكوين الثقافي يؤدي في كثير من الحالات الى مشاكل نفسية وسلوكات اجتماعية معبرة وعاكسة لنتائج ظاهرة مثل هذا الانقسام الحضاري الذي **لم يعد نافذة تفتح على الخارج** وإنما أصبح فعلا أداة انتحار حضاري يبلى بها هذا النوع من المثقفين وبالتالي المجتمع التونسي نفسه . ولقد لاحظت بنفسي هنا في شمال أمريكيا ما يمر به التونسي المثقف ثقافة فرنسية اذا هو أراد أن يؤكد انتسابه الى عناصر حضارته التونسية العربية الاسلامية .

أنا أتحدث هنا عن جيلنا المثقف في مدارسنا التونسية منذ الاستقلال . اني لاحظته يعاني من عدم قدرته على القراءة والفهم بسهولة باللسان العربي الفصيح . هذا في حد ذاته لا بد ان تكون له انعكاسات نفسية ربما حادة في شخصية مثل هذا التونسي المتطلع الى انتساب أمتن الى حضارته وثقافته التونسية العربية الاسلامية وهو غريب خارج أرض الوطن .

ولقد حضرت أخيرا اجتماعا للمهاجرين التونسيين في منريال . كان هدف هذا الاجتماع هو تأسيس ودادية أو ما يشبه ذلك لجمع شمل المهاجرين التونسيين في كندا .

وكانت لغة التونسيين في هذا اللقاء فرنسية في معظمها رغم اقتراح البعض (وهم الاقلية) استعمال اللغة العامية التونسية او الفصحى في المداولات والمناقشات لهذا الاجتماع . ومن التناقض ان يتكلم معظم الحاضرين عن أهمية الذاتية الحضارية للتونسيين بكندا دون أن يجعلوا العنصر اللغوي أهم عناصر الذاتية لاي مجتمع أو أي مجموعة إنسانية . وأهمية العنصر اللغوي بالمجتمع الكيباكي الحالي كان يمكن أن يلفت نظر هؤلاء التونسيين الى أهمية لغتهم في أي محاولة للمحافظة على الذاتية التونسية . وحتى إن أرادوا استعمال لغة تونس الدارجة أو العربية الفصحى فان معظمهم طبعا غير قادر على استعمالهما في المناقشات التي كانت تحتوي على مفاهيم واصطلاحات لم يعرف معظم التونسيين الحاضرين مرادفات لها بالعربية الفصحى أو الدارجة . وهكذا فان بعضا من المتكلمين إعتذروا فعلا عن عدم مقدرتهم على أن يعبروا عما يريدون بالعربية الفصحى أو الدارجة في مثل هذه المناقشات التي أثيرت في هذا الاجتماع . أما بعض الآخرين فلم يعتذروا عندما تكلموا بالفرنسية لان هذه الاخيرة ربما هي اللغة التي يعتبرونها لغة تونس العصرية ! وفي كلتا الحالتين فان سطوة الاستعمار الفكري واللغوي الذي وقع تحت تأثيره كثير من التونسيين – خاصة من بين المثقفين – تبدو واضحة وجلية في المناخ الذي ساد كثيرا من ملامح هذا الاجتماع .

منابر قومية لأجل التأصيل :

إن وزارة الثقافة يمكن لها أن تقوم بحملات قومية في كل أنحاء الجمهورية وبين كل الاوساط الاجتماعية التونسية . هدف هذه الحملات هو توعية التونسي بذاتيته الحضارية والثقافية واللغوية . وإن هذه الحملات يمكن شنها عن طريق إقامة المنابر والمناقشات حول قضية الاصالة الثقافية للمجتمع التونسي .

إن وسائل الاعلام من صحف ومجلات وإذاعة وتلفزيون يمكن طبعا أن تساهم – على الاقل – في طرح قضية الانتساب الحضاري والثقافي واللغوي للتونسيين ومجتمعهم .

ويمكن توسيع رقعة المواضيع المطروقة في مثل هذه المنابر والمناقشات الشعبية . فقضية التعصر الذي يعيشه الغرب والشرق لا بد من طرحها للمناقشة في أي محاولة لتأصيل المجتمع التونسي . إن كثيرا من أبنائنا وبناتنا يجدون أنفسهم مقلدين لأوجه الحياة العصرية الغربية خاصة وهذه النزعة المقلدة تكاد أن تكون آلية أو شعورية . لأن التكوين الثقافي – كما أشرت – لكثير من التونسيين يجعلهم غير قادرين حتى على القيام بمقارنة ثقافية وحضارية ولغوية بين تراثهم التونسي والتراث الغربي الذي يقلدون مظاهره وأنماطه عن غير بصيرة في كثير من الحالات .

فنحن نعرف أن أنماط الحياة العصرية الغربية تهاجم وتنقد في عقر دارها خاصة في الحقبات الاخيرة . وعلى المناقشات والمنابر الشعبية أن تتعرض الى التحليلات والدراسات النقدية التي قام بها كتاب ومفكرون وعلماء غربيون(12). إن هذه التحليلات والدراسات النقدية لأوجه الحضارة الغربية العصرية يمكن لها أن تساهم في تقويم التصورات الخاطئة حيال تراثنا القومي خاصة لدى المثقفين الذين يشكون أكثر من غيرهم في مجتمعنا التونسي من الاستعمار الثقافي .

إن توعية المواطن التونسي – خاصة مثقفينا ذوي الثقافة الغربية – بملف الحضارة الغربية العصرية كما يراها ويحللها أبناء وبنات هذه الحضارة نفسها

(12) The Homeless Mind : Moderni zatrin and Censciousness
P. Berger. B. Berger and
H. Kellner-Vintage 1974

لهى مساهمة فى تقليل حدة دافع **التقليد الأعمى** الذى يلاحظه الملاحظ عند كثير منا ممن بلوا بالاستعمار الفكرى الغربى . إن ابراز الظواهر السلبية على المستوى الفردى والاجتماعى لأنماط الحياة العصرية الغربية واضحة لكل محلل للمشاكل التى يعيشها الغرب خاصة منذ الستينات .

إن ابراز الحقائق لكل التونسيين فيما يخص الحضارة الغربية المعاصرة نوع من التثقيف التأصيلى لابناء وبنات المجتمع التونسى الذين تغرهم مظاهر هذه الحضارة فيسقطون ضحية التقليد المخنق بسرعة وبدون مقاومة . إنه من الغريب أن يتحدث كثير من المثقفين والعلماء الاروبيين (I3) عن الازمات التى تمر بها الحضارة الغربية ويستمر فى نفس الوقت التقليد غير الواعى لنفس هذه الحضارة **القلقة** من قبل كثير من مواطنينا وفى نفس الوقت الذى نبرز فيه أسباب قلق وحيرة الحضارة الغربية المعاصرة لمواطنينا يجب أن نقدم لهم بالمقارنة المساهمات الانسانية والحضارية والثقافية للتراث العربى الاسلامى الذى كان يعامل الانسان وينظر اليه كوحدة لا يمكن تجزئتها الى قسيمات منفصلة . إن نظرة الاسلام للانسان نظرة تأخذ بعين الاعتبار كل المظاهر للنفس الانسانية دينا وسياسة واقتصادا واخلاقا ... الخ ... (I4) . إن التركيز على نظرة الاسلام للانسان يبرز عمق الاسباب التى أدت الى أزمات الحضارة الغربية كلما أكثرت هذه الاخيرة فى تقسيم الانسان ونشاطاته الى وحدات منفصلة . ونتحدث الآن فى الغرب القلق عن ضياع عنصر المبادىء أو القيم الثابتة التى يمكن أن يلجأ لها الفرد فى تفسير سلوكاته ونشاطاته . إن ضياع القيم الثابتة أو Les Points de Réference فى المجتمع الغربى المعاصر خلق تمزقات نفسية لدى الفرد تؤدى أحيانا الى انتحارات فى مستهل الشباب وقد تؤدى أيضا الى انتفاضات جماعية رأينا عينات منها فى الهيبى Hippies والمتخنثين والمجموعات الاخرى التى اتخذت العنف سياسة لها فى هذا البناء الحضارى الغربى العصرى . ومجموعة Mein hoff فى المانيا الغربية مثل على الانتفاضات الجماعية العنفية فى الحضارة الغربية .

إن مثل هذه المناقشات والمنابر الشعبية ـ اذا كانت جادة ـ يمكن أن تحدث تغييرا فى عقلية التونسى ونظرته الشخصية الى نفسه وحضارته وثقافته

(I3) انظر مثلا المقابلات التى أجرتها Le Monde مع J. Ellul, M. Mcluan J. Elleinstein الخ ... هذا الخريف (1977) فى ركن Les Grilles du Temps

(I4) انظر كتاب محمد قطب : دراسات فى النفس الانسانية : دار القلم .

ولغته . إن التونسى المنزوع من التكوين العربى الاسلامى لصالح التكوين الثقافى الغربى يصعب عليه أن ينظر الى نفسه بسهولة وارتياح على انه فرد ذو شخصية يجب أن تعتز بمكوناتها اللغوية والحضارية والثقافية .

إن التذبذب الذى يلاحظه الباحث فى الذاتية التونسية الحضارية والثقافية واللغوية لا بد أن يكون له علاقة حقيقية بطبيعة التكوين اللغوى والثقافى والحضارى الغربى الذى تعرض له كثير من التونسيين دون أن يتعرضوا **لنفس النصيب** من اللغة والثقافة والحضارة التونسية .

إن الثورة الثقافية لا يمكن أن يتنبأ بها المرء فى مجتمعنا التونسى لأن الظروف الحالية – سياسيا واجتماعيا – لا تسمح لتونس كمجتمع أن تخوض بجدية فى مثل هذا التغيير الثقافى . لكن قضية الاستعمار الفكرى – فى نظرى – هى قضية سوف يزداد طرحها أكثر فأكثر خاصة من قبل الشعوب النامية فى المستقبل . فبعدما شهدته هذه الشعوب النامية من احتلال ، جاء الاستقلال السياسى لمعظمها . ثم تلا الاستقلال السياسى برامج النمو الاقتصادى . ثم جاءت حوادث اكتوبر 1973 فبعثت فكرة النظام الاقتصادى الجديد فى العالم Le Nouvel Ordre économique . وعبر كل هذه المراحل التى مرت بها البلاد النامية ظل طيف الاستعمار الثقافى مختفيا عن العيان بصفة عامة . لكن هذا الطيف بدأ يصبح حقيقة لكثير من الشعوب النامية (15) التى لم تدرك أخطاره مثل كل ظواهر الاستعمار . بدأنا مثلا نتحدث عن تحرير ثقافة هذه الشعوب فى منطقتنا (16) . أرجو أن يكون هذا الجهد التحررى الثقافى فى تونسنا جادا وذا نفس طويل يمكننا من الخروج من الاستعمار الثقافى المشين لشخصيتنا وذاتيتنا الحضارية والثقافية واللغوية . فالسؤال العمودى المطروح هو : إن تونس قادرة سياسيا وآجتماعيا على أن تسن

---

(15) انظر مثلا ملخصا حول الندوة الاولى لبحث أخطار الاستعمار الثقافى فى جريدة Le Monde لـ 26 / 10 / 77 ص 23 وانظر كذلك ما جاء فى Le Monde Diplomatique لشهر نوفمبر 1974 حول « الانبريالية الثقافية » .

(16) انظر ما جاء فى Le Monde لـ 23 / 11 / 77 تحت عنوان : decoloniser les Relations culturelles ص 26 .

الطرق وتقوم بالسياسات الشجاعة لكي تتخلص بحق من أخطار الاستعمار الثقافي ؟

إن ظاهرة الاستعمار الثقافي فيها تحديات شتى ومتشعبة تضاهي أو تفوق الصعوبات التي عاشها الشعب التونسي في سبيل نيل استقلاله السياسي والرفع من مستوى حياته اقتصاديا واجتماعيا . هل لشعب تونس الشجاعة والسياسة المدروسة لازالة الصعوبات التي تقف دون نيله الاستقلال الثقافي؟ إن توعية المواطن التونسي بهذه الحقيقة : حقيقة وانعكاسات الاستعمار الثقافي في المجتمع التونسي لخطوة مهمة في طريق التخلص من قبضة الاستعمار الفكري الخانق .

والخطوة الثانية هي إمداد التونسي بثقافة قومية لغويا وحضاريا وثقافيا بطريقة تفوق تكوينه الغربي على هذه المستويات الثلاثة .

والخطوة الثالثة هو جعل المحيط الخارجي **متناسقا** مع التكوين الثقافي **واللغوي للناشىء** التونسي خريج **هذا النظام** التربوي الجديد **ـ المقترح في هذا** المقال ـ حيث يتقن أبناؤنا وبناتنا العربية قبل الفرنسية ويتعلمون ثقافتهم وحضارتهم قبل ثقافة الآخرين وحضارتهم .

محمود الذوادي
(منريال ـ كندا)

● ورد الى المجلة عن طريق أحد الاصدقاء كتابان

1) **للشاعرة نازك الملائكة بعنوان**

يغير ألوانه البحر

نشر وزارة الاعلام بالجمهورية العراقية

2) **المسرح العراقي اليوم**

من منشورات مركز الابحاث والدراسات بالمؤسسة العامة للسينما والمسرح بوزارة الثقافة والفنون (بالجمهورية العراقية)

أبيات وفاء

شعر: عبد الرحمن الكبلوطي

أجبت نداءك لما دعاني   فجئتك أسرع من « قيرواني »
وقلبي يحييك يا « سوسة »   ويزداد في نبضه خفقاني
ويهديك اخلص ما في الهوى   من الود ما يصطفي والحنان
أتيتك أحمل باقة زهر   وأمنح أهلك عذب الأغاني
تجيد أداها بنياتنا   وتطفح ألفاظها بالمعاني
أتيناك يا « معهد الفتيات »   نتوئم ألفين لا ينسيان
مآثرنا الخالدات هنا   ولا ما فتحنا بحد السنان
قرون الحضارة في سوسة   تقارن ، لا شك ، بالقيروان
فقد أشرق النور في بلدينا   وبالعلم كنا بلغنا الاماني
فكم كان منا أسود أقاموا   حماة الرباط بأعلى مكان
وكم من رجالاتنا قد سبتهم   شطوطك والماء والجعفران (I)
وكم من فقيه أتى جامعينا   وكم من أديب شدا بالحسان
فـ (يحيى) رفيق لـ (سحنوننا)   و « أحكامه » اشتهرت باتزان
و (بهلولنا) كان للزهد رمزا   كذلك عندكم (القبرياني)

(I) هما جعفر أحمد بن سعدون الأيسي المشهور ، والمتوفي سنة 323هـ/ 934 م وصديقه أبو جعفر القمودي ضيفه وملازمه ، والمتوفى سنة 324 هـ / 935 م .

وذكر (أبى راوى) فى سوسة جميل ، كذكره فى القيروان
وان كان (حصرى) بلادى عظيما كذاك (ابن عبدون) حلو المثانى
وإن رفع (ابن رشيق) جبيننا فان لـ (ترابكم) ألف شأن
أتينا نواصل ما كان منا من الوصل سلسلة من جمان
نجدد توأمة قد تجلت وأورق غصن لها فى الجنان (2)
ونبنى علاقاتنا من جديد فتبرز ثمرتها للعيان
ونرفع راية أمجادنا اليها يشار بأوفى البنان
وتبقى المحبة ما بيننا وفاء لسوسة والقيروان

---

(2) اشارة الى التوأمة الرسمية التى تمت بين المدينتين بسوسة يوم 27 / 7 / 1969 .

الشجرتان

قصة : عبد القادر الحاج نصر

انغمست يده فى جيبه يفتش عن منديل الحرير وتأوه .. انسحب الظل على نصف وسطية البيت .. اجتاز دائرة الشمس . جلس على كرسى ومدد ساقيه يتلذذ ببرودة الهواء . نظر أمامه فأغمض عينيه . كان يريد ان تظل منى بينه وبين الأفق ، أن تحيل بينه وبين كل الاشياء . وجد فى اغماضة العين راحة فنسى المحيط والناس . ياه !! ما أجمل منى تقف وتقترب منه ، تأخذ يده فى يدها وينداحان فى الطريق الى البحر . ارتطم سطل على الارض أمامه .. انسكب ماء كثير .. كثير .. تأوهت زوجته .. وتأهبت تدفع الماء بعيدا عنه ، ولكنه تسرب فوصل ساقيه .. لم يفتح عينيه ، ولم يتحرك . امتزجت برودة الماء بالظل فأنس لطيف منى لا يبرح شاشة الخيال .. « أيحب حتى الثمالة رجل متزوج مثله ؟ » انفلت الظل ، وانحدرت الشمس الى الامام هاربة .. شعر كأن الظلام يغمره .. ما أجمل العيش على خطى منى ! اقتربت منه زوجته تمد يدا فيها فنجان قهوة ، فتح عينيه على مضض ولم يتكلم . زقزق الماء تحت قدميها . « أيمكن لرجل مثله أن يغمره عاصف من الحب ؟ كان يريد ان يهرب بمنى الى مكان لا يطوله أحد .. انغرزت فى رأسه وضعيته الشاذة .. تململ فى مكانه كأنما وخزته إبر .. »

ما له لو يخرج من جلده ! رجل متزوج !! ولكن قلبه يمتص الحب كل يوم حتى أصبح على حافة الانفجار « قد يصارح زوجته وينتهى الامر » رآها تقترب منه وتجلس .. تأخذ بين يديها مهراسا فتدق دقات متتالية سريعة .

أنس للضجيج وارتفع فوقه . كان الصمت يخيم .. « ما أجمل أيام الخريف الحارة !.. » الناس عندما يحبون ينزلقون ، وهو قد انزلق فلم يتوقف وليس أمامه الا فراغ . الناس عندما يحبون ! تدحرجت يده على جانب الكرسى لامست زوجته فرفعها بسرعة .. لم تنته ضربات المهراس .

حين جلس الى منى أول مرة كان يعرف أنه لن يفلت من قبضتها .. اختار الطريق وسار بكل حواسه فى البداية ثم انهارت قدماه ولم يعد يستطيع مواجهة حواسه « انزلقت حتى الثمالة » .

فجأة اختنقت ضربات المهراس .. أدرك أن فى الامر سؤالا . فأغمض عينيه بقوة واستعد للمواجهة . فقالت :

الرجال يدخلون ويخرجون وأعينهم مغمضة .

أدار وجهه كأنه يتقى هجوما بالأيدى والعصى .

ـ الشمس تحرق .. والتعب أزناس

مدت ساقا ، واحتفظت بالاخرى تحت عجزها .

ـ أما النساء مساكن ما يعيوش !

ود لو يسكت .. ولكن لم الاستسلام !

ـ النساء .! مضغان اللوبان ما يتعبش .

أسقطت حبة اللوبان من فمها ورمت بها على الاسفلت فأحدثت صوتا .

ـ هذا اللى بيك .؟ تعدى النهار قاعد وتروح مفشش . ياخى البيروات تعب .

ضحك فى سريرته حتى كاد ينفجر وتنهمر دموعه .

ـ آه .. يا مرا .. خلى الريح بايته

مدت ساقها الاخرى ، وابتعدت برأسها تصوب نحوه نظرا ثاقبا .

ـ تعملوا كل شىء وزيادة .. الرجال كالارياح تطيح وتهد وما يراها حد . ما أخيب ها الدنيا .

ثارت أريحته ، وهو يغوص فى الكرسى

ـ والله الدنيا ما أخيبها يا مرا . كل شىء أعوج كذيل الكلب .

نهضت .. وكان المساء يزحف .. الشمس تنحسر .

ـ هالعيشة الكلبة .. ما ابهاك يا زمان كنت فى دار بابا .

تابعها بنظر مكدود .

ـ الزمان خايب والمصايب ما يحملها حد .

عاد يغوص فى الكرسى . فى برودة الظل والماء ، وفى عينى منى خلف غمامة راحلة مسرعة .. أينقض حياته كلها ويلتفت ناحية منى ؟ لكن يدا غليظة ستهوى على رقبته وتجره فى ساحة السوق .. ويصيح الدلال « لقد نكس العادات الحسنة فنكسوه » .

تصول الايام عليه فيتحفز لها شاهرا كل حواسه .. ولكنه يسقط على ركبتيه ويستسلم . الصقوا به زوجة فقبل كارها ، وركع للريح تمر على رأسه ساحقة . كانت دائما حاضرة لديه يعاملها برطوبة اللسان أو بقسوة الظروف فتصمت أو تثور . ولكن ما حدث كان نشوة غريبة فى رؤوس العائلة. كل من حوله تناول مايشبه الحشيش وقال له : تقدم .. هذه زوجتك .. أتغضب الله فتكفر ؟ تجرجر من أعلى يتحمل الحصى والشوك ينغرز فى بدنه . كان رجلا صامتا متالما يتكلم . أودعوه السجن . حين أطلت منى كانت الارض قد شربت ماءها .. وبدأ النبات يعلو السطح . فكر فيها .. هى كل شىء فماذا يفعل وقد شربت الارض ماءها ؟ تسلطت عليه الحمى وهو ينتقل بين الدار ومكتب العمل . هكذا دفعوه فى غمرة النشوة فرفض فى الباطن وقبل اجراءات الزواج .

صحبته منى خارج المدينة .. ولم يكن الطقس حارا ولا باردا . وكانت فى قلبه عواصف وكان غليان .. جلس اليها . متزوج يريد الاستيلاء على حب آخر . ورغم قضبان الحديد كان يتصور ان كل شىء ممكن . يا حب تفعل بالناس أشياء كثيرة ! أدارت منى وجهها فانفلتت خصلة الشعر ودارت تخفى صفحة الوجه .

ـ أشنيه الفائدة نتقابلو ؟

احمر وجهه كالمذنب يدرك ذنبه ويتجاهله .

ـ أنت خايفه ؟

اعتدلت فى جلستها .

ـ نسيت الناس ؟

تذكر ياجوج وماجوج يحوط به من كل زاوية ، يطارده من مكان الى آخر ومنى تفلت من الدائرة ويظل هو وسطها . تنكمش الانفـاس .. تنكمـش .. يصفر الوجه ينسد الافق .. يسقط مغشيا عليه . لاشيء الا زوجته ترش عليه قطرات ماء من ابريق النحاس . كانت منى هى كل شيء رغـم كـل شـيء ، لكنه حين يمد اليد لا يقبض الا على الريح . أحبك يا منى .. تذكر أنها نجلس قريبة منه وانها وجهت اليه ما يشبه السؤال . قال كأنه يغالط نفسه :

ـ اللى تقال تقال . خلى يقولوا .

طأطأت رأسهـا .

ـ الناس ما تعياش من الكلام .

وضع يده فى يدها .

ـ كلام فارغ ما يحيرش .

قالت بكآبـة :

ـ انت ما تحسوش ، أما أنا مرا .

ثارت ثائرته فصرخ :

ـ ما ثماش حب بلا ناس ، وما ثماش ناس بلاش مشـاكل ، يـا اتحـب وتتحمل ويـا ..

ضربه الصمت فسكت . كانت العواصف أقوى من بنيته . وبينه وبين منى ابعاد لا تحد . هى الارض حوله لا مخرج فيها ولا ثقـب . يريـد أن يتنفـس الهواء الجاف ، لابرودة فيه ولا روائح . ورآها تجلس الـى جانبـه شـامخة كالطود ، قوية كالربة . صامتة كالجدار . رآهـا ، وعيناهـا الخضـراوان تنطلقان فى فسحة الحلفاء باحثتين عن الخصب الذى لم تأو اليـه الرحـل . وكان هو بجانبها مكانا بلا رائحة ولا طعم . أيضر به الوهن حتى الركبتين فلا ينتقل فى خفة الغزال لا تشده الاخاديد ولا توقفه الكثبان ؟ انما هى سـاعة واحدة يتخلص فيها من الوثن ، ويحمل منى فى عينيـه ويهرب وفـى الارض مسالك لو أراد .

استمع اليها تقول وهو شارد :

ـ اتخـرف .

عادت السكينة تملأ خلايا صدره فيبرد الغليان ، وتمهد الثـورة . وفـى عينيها قرأ أشياء لا يمكن أن تفهم أبدا ــ أتحبه ؟ أتكذب عليه ؟ وماذا يفيد ؟ كان يتأرجح فى عينيها كالصغير فى الارجوحة يختلط عليه الشمال والجنوب فينسى موضعه . قال وهو يحاول اصطياد عينيها :

ــ العبد تحكم فيه الظروف .

ارتسمت بسمة ساخرة على شفتيها .

ــ الراجل اذا كان راجل ما تتحكمش فيه الظروف .

ابتلع ريقه . يا ويله من كذبة يطلقها فتعود اليه وتصفعه . لم يكن واقفا على أرض صلبة .. كل شىء يمور تحته ويتزحزح . تمنى لو تمرغ على اكداس الحلفاء ، ونام على حصير فلا يستيقظ .

تملكه الخوف من الطريق .. قد لا يصل الى الطريـق .. سيطـر عليـه الرعب .. أيظل مسافرا فى الحلم ؟ لقد كانت دائمـا يدهـا بـاردة تشعـره بالمستحيلات . كانت معه وهى تفكر فى مستقبل الايام .. فى شىء آخر غير كتلة الاحاسيس الملتهبة . هى ايضا لها أنانيتها المفرطة . تريد أن تصبح امرأة رجل لم تتحطم شوكته .. ولم يبدأ الطريق بعد . منى تتشبث بشبـح آخـر يوحى بالاطمئنان والدوام . هكذا تنسل يدها من يده ، تجذبها وهى بـاردة وفى عينيها برد التلال العالية فى الشتاء ، والطريق خضرة على خضرة لحقول الحلفاء .

ــ انحب انطلق .. ما يكفيكش !

وقالت وبسمة ساخرة تراودها :

ــ ممكن تطلقنى انا من بعد . آش يكون يمن الرجال ؟

أصر فى يأس .

ــ ياخى الرجال الكل كيف كيف ؟

وأصرت فى حدة .

ــ الحقيقة هى الحقيقة .

راود يدها فشعر بالبرودة من بعيد . قد يظل يحبها حتى لو تكدست ثلوج القطب بينهما ..

لماذا يراودها وسلسلة غليظة تشل حركته ؟

استمع الى دقات المهراس من جديد . زوجته تهرس .. ماذا تهرس ؟ عظامه تيبس حتى كأنها تحترق . وكان الفراغ بينه وبين منى مسافات طويلة .. من الضباب الداكن المتواصل . كان الفراغ يقترب منه ، ويستمع الى دقات المهراس فيتلاشى .

منذ ذلك الوقت .. اى وقت بالتحديد .. من يعلم ؟ بدأت المعركة بين المهراس والفراغ .. وظل هو يعيش بين هذا وذلك صامدا كالجبل لا يتزحزح.

تقرؤون فى الاعداد القادمة

قصة : هناء السويسى .... هل هو على حق ؟

دراسة : عبد الرحمان عبد اللطيف.. مدينة قليبية عبر العصور .

شعر : عبد الحميد خريف .... الرسم بماء الورد على ورق الحب

دراسة : رياض المرزوقى .... فى نقد التراث

دراسة : محمد الشعبونى .... خواطر حول ديوان صالح السويسى القيروانى

شعر : محمد على الرباوى .... حصار

شعر : أحمد لحباشة .... الظل فى قيظ العالم الأسفل

شعر : محمد عمار شعابنية........ سلام على الأم انشودة وقضية

حينما تصبح الرغبة أمنية

شعر : فاطمة الزبيري

قل للفـؤاد اذا مـا عـز مطلبـه   أى الفداء بغيـر العمـر يطلبـه
ذوبت حزنى بكأس الدمع طائعـة   ومـا دريت بأن الحـزن مذهبـه
اسائل الليل هل ترضيك قسوته   هـون عـلى فيكفينـى تحجبـه
لم يعرف القلب أقسى من تصرفه   أراه فى الحلم وهما .. لست أقربه
أى المعانـاة يخفـى فى جوانحـه   أى الاعاصير فى الانواء ترهبه ؟؟
لو شاء دمر هذا اليأس فى ولـه   وفجر الصمت...ان الصمت ماربه
مـن الغـواية ان تجـلى حقائقـه   من الحماقة صدق الوعـد أرغبـه
ليس التطفـل من طبعى فوالهفى   رضخت للصعب حتى لان اصبعه
لولا التمرد ما قيـدت ألـف يـد   تمتد نحو سراب العمـر تنهبـه
فكيـف تغفـل عـن آلام تائهـة   صاغت لك الحب شعرا..رق اعذبه
فكل حرف بسـاح اللفظ مقصـلة   لولا تطاوعـه .. ما كنت أكتبـه
لا تنزعـج مـن مقاديـر مخبـاة   سـر المقـادير فى عينيك أرقبـه
فيـم التوجـع والاقـدار تملكنـا   دمع الحنين اذا مـا رحت اسكبـه
تبكى القوافى ويشدو الحـرف مغتبطـا
أى الفـداء بغيـر العمـر تطلبـه ؟؟؟

77 / 9 / 9

مُراجعة مفاهيم

بقلم: الحبيب الجنحاني

الاهدا : إلى محمود النوادي مع ذكر الود ..

اذا كان الناس يستعملون ألفاظا واحدة ولا يتفقون مع ذلك حولها فان المضامين التي تحملها تلك الالفاظ هي سبب عدم الاتفاق والتفاهم .

بينما كنت في مكان ما ذات يوم اذ وقع نظري على مجلة « باري ماتش » الفرنسية (عدد 1462 بتاريخ 3 جوان 1977) فأخذتها بين يدي لأتصفحها ، قتلا للوقت ، وهل يحتاج الوقت الى قتل في العالم الثالث ؟.. المهم قرأت فيها حوارا بين بيغن رئيس الحكومة الاسرائيلية وصحافي فرنسي . ومن بين **الاسئلة من الصحافي الفرنسي الى بيغن هذا السؤال : يقولون في الخارج عن نتائج الانتخابات جملة واحدة هي : « إن اليمين ، في إسرائيل ، استولى على الحكم » فما وقع هذه الجملة في نفسك ؟**

فكان جوابه : كان لذلك وقع سلبي وخال من كل معنى ، ثم أخذ يحلل **المصطلحين : إن يمين ويسار من مصطلحات الفكر السياسي الفرنسي في** القرن الثامن عشر ولكن الدعاية الماركسية ـ وهي ناجحة ـ جعلت منهما ، لاقناع العالم ، مرادفين لمعنى « الرجعية » و « التقدمية » (يسار ، يمين) وهذا كله في نظره جزء من الماضي لأنه لو حللنا معنى كل من اللفظين في اللغة البرلمانية لوجدنا أنهما تعنيان تبادل أماكن الجلوس في البرلمان بين الكتل عندنا ، فمن كان في اليمين سيصبح في اليسار عند تبدل الحكومات والعكس صحيح ، وقال بانه هو وحزبه سوف يجلسون الى يسار الرئيس **وحزب العمال الى يمينه قادما .**

عدت بعد قراءة هذا الكلام للبحث في تاريخ هذه المصطلحات الاجتماعية السياسية : يمين ، يسار ، تقدمية ، رجعية .. الخ .

وقرأت ما استطعت العثور عليه من كتب التاريخ الاجتماعي والسياسي، وهذا بعض ما سجلته من النقاط .

1) ان الاصل التاريخي لتعبير « يمين » و « يسار » يرجع الى وقوف طائفة « الثالثة » على يسار مقعد رئيس الجمعية الوطنية في فرنسا، تعبيرا منها على موقفها المعارض من الملكية القائمة بالبلاد الفكري - السياسي من الحكومة القائمة حتى اذا ما تبدلت الحكومة تبدل الموقع فيصير اليمين يسارا واليسار يمينا دون أن يتنازل أحد من الجانبين عن آرائه . فاليسار اذن هو مجرد المطالبة بتغيير الحكومة لا غير .

ان الملفت للنظر هو أن بيغن مازال يفهم « اليمين » و « اليسار » بهذا المفهوم التاريخي للمصطلحين وكأن الحياة لم تتطور فتعطي للمصطلحات مضامين أخرى مطابقة لتطورها ومواكبة لحركة التاريخ التي لا تتوقف .

2) بما أن اللفظين ولدا في أروبا وحيث ان تطورها أفضى على المستوى الاجتماعي - الاقتصادي الى ظهور النظام الراسمالي ثم المناقض الجدلي المتمثل في التيار الاشتراكي فان الخطوة التالية للمصطلحين هي الدلالة على الاتجاه الاشتراكي بالنسبة لـ « اليسار » والدلالة على الاتجاه الرجعي بالنسبة لـ « اليمين » (خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر)

3) فارتبط مفهوم « اليسار » بـ « التقدمية » ومفهوم « اليمين » بـ « الرجعية » .

وجدير بنا ان نلاحظ أن « الاشتراكية » و « اليسار » يجب ان نفهمهما لا كما تعودنا ان ننظر اليهما من خلال منظار غربي استعماري ، بل من خلال واقعنا العربي وما يطرحه من مشكلات وما يتطلبه من حلول وقد انقطعت صلة « اليسار » بـ « التقدمية » في موضوعين :

1) عندما أصبح بالنسبة لمشكلة معينة هو اليسار بالنسبة للواقع الاجتماعي ككل . فاليسار ظل يسارا ، في فرنسا ، في نظرنا ، حتى وهو يضرب بقنابله على مصر 1956 والجزائر . ثم مالنا ننسى التاريخ بقدر افق صعود الجبهة الشعبية (اليسار) الى الحكم في فرنسا أكبر مذبحة عرفها الشعب الجزائري والشعب السوري .. ويظل يسارا دائما وأبدا حتى وهو لا

يعترف بأن أرض فلسطين أرض مغتصبة . ان كان هناك يمين يعترف بذلك – وهو مستحيل – فيجب أن يكون هو اليسار في تصورنا للامور تصورا يستجيب لمطالبنا .

2) عندما اصبح لا يحدد موقف القوى من الواقع . بتعدد اليسار وتعدد اليمين وظهرت الملل والنحل كل يرى انه أولى باختصاصه بـ « اليسار » و « التقدمية » وما دام « اليسار » أصبح مقطوع الصلة بمشكلات واقعية الموضوعية فلا غرابة ان يصبح مباحا لكل من يدعيه وتفقد « اليسارية » مدلولها ويصبح استعمالها من عبث المراهقين .

فاليسار ليس ظاهرة « **عرفية تقليدية** » . ان تاريخ الثورة الروسية 1917 يذكر انه تقدمت الى الجمعية التأسيسية من اجل الانتخابات (في ظل الثورة بمدينة لينين غراد) احدى عشرة منظمة كلها تنسب نفسها الى « اليسار » بالاضافة الى البلاشفة أنفسهم الذين افرزوا جناحا يساريا فكتب لينين كتابه المشهور « المرض الطفولي للشيوعية » (1) أو « اليسار الطفولي » سخرية من المواقف الصبيانية وقد صفت ثورة اكتوبر ذلك باسم اليسار ايضا فليس من « اليسارية » العبث « بالتقدمية » اذا كانت تتعلق بمستقبل ومصير الشعوب . ان مشكلة الانسان في هذا العصر ، انسان العالم الثالث بالذات هي « شكشوكة المفاهيم » فقد أفقدته « وعي الذات » و « وعي الموضوع » معا ونتج عن هذا ما ندرسه في الفلسفة من قضية « الاغتراب » اغتراب الذات عن نفسها وعن مجتمعها و « اغتراب » المجتمع ككل عن هويته وحقيقته وبالتالي عن غيره ايضا . فقد (الحس بالهوية) عندما غاب وعيه التاريخي وفقد (الحس بالوجود) عندما غاب وعيه بالواقع وحصل من ذلك كله انهيار القيم والاشياء أمامه ولا سبيل له من مخرج غير :

1) تقديم ارادة التفكير على كل ما نعتقد انه انجاز او عمل او لا يستحق النقاش والمراجعة وتحقق هذا بالخروج من فوضى المفاهيم وبتحديد المصطلحات

2) طرح جميع المشكلات من زاوية العلم ومناهجه وطرقه وأساليبه للخروج من الفوضى والضبابية . وتحقق هذا بتمثل روح العلم واتقان صنعته لا بتداول ألفاظه والاكثار من مؤسساته ورموزه .

---

(1) تعبير ساخر :
La maladie infantile du communisme (le gauchisme)

فما هي التقدمية ؟

التقدمية على مستوى الفكر والممارسة تقوم على أسس ومبادىء لا بد للمنتسب اليها أن يعيها كي يبنى عليها مواقفه ويمكن اجمال تلك الاسس والمبادىء فيما يلي :

1) ان المجتمعات الانسانية تتطور بمعنى تتبدل مضامينها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية .. الخ خلال حركتها التى لا تتوقف . ولذا تسقط التقدمية عن أولائك الذين يؤمنون بفكرة الخلود والثبات الاجتماعيين ، **فهؤلاء ليسوا تقدميين ولو كانوا قوة اجتماعية لها وجود حقيقى فى دنيا الواقع . ان المجتمعات الانسانية تتطور خلال حركتها من** الماضى الى المستقبل تطورا جدليا اى عن طريق « **النمو والاضافة** » الدائمين . وبهذا الاعتبار فان مدرسة « التاريخ يعيد نفسه » وان « لا جديد **تحت الشمس** » هى مدرسة رجعية رغم تسليمها بالحركة والتغير لانها تنكر التطور كاتجاه يسير الى الامام **دائما ولا يعود الى الخلف بل يمكن فى نظرها اعادة الماضى** كما كان . فما قيمة الحركة بدون اتجاه تتميز فيه البداية من النهاية فنعرف منهما تراجع المتراجعين وتقدم المتقدمين .

2) **اذا سلمنا** بـ « حتمية التطور الاجتماعي خلال النمو **والاضافة فى حركة تتجه من الماضى الى المستقبل » فان التقدمية تتحدد بفترة زمنية من مراحل التطور الاجتماعى ، وبمعنى اوضح فان التقدمية ليست مفهوما مطلقا يكون مقياسا للحركة فى كل زمان ولهذا تسقط « التقدمية » عن « المثاليين » فهؤلاء** يطالبون التغيير ويرفضون العودة الى الماضى ، باعتبار ايمانهم بحتمية التطور واتجاهه التقدمى ، ويشاركون فى الحركة الاجتماعية ، ولكن يطلبون من وراء كل ذلك « مستقبلا » تتجاوز المرحلة التاريخية التى يتحركون فيها، وبهذا المعنى نرفع التباسا كبيرا يقع فيه كثير من أدعياء التقدمية فى زماننا هذا .

3) اذا سلمنا بـ « حتمية التطور الاجتماعى خلال النمو والاضافة من الماضى الى المستقبل فى مرحلة زمنية معينة » فان التقدمية تتحدد بمكان معين ، فالناس ليسوا أمة كامل الكرة الارضية ، أى مواطنى العالم ، بل هم ينتسبون الى مجتمعات معينة وأوطان معينة تربطها بمجتمعات وأوطان أخرى علاقات وظروف ومعالم وتناقضات .. الخ . فالتقدمية اذن ليست مفهوما مجردا يصلح

مقياساً للحركة فى كل مكان لانها بذلك تتحول الى فكرة غير ذات مضمون ولذا تسقط « التقدمية » عن « الطوباويين » رغم ايمانهم بالتغيير ورفض العودة الى الماضى والتزامهم بمرحلتهم التاريخية بل والمشاركة فى الحركة الاجتماعية لانهم يهدفون من وراء ذلك الى تحقيق غايات مستعارة من غير المجتمعات التى يعيشون فيها او هى حلول لمشكلات ليست هى التى تطرحها ظروفهم الاجتماعية على كل المستويات المادية والفكرية .

4) اذا كان كل ذلك منطقيا فنتيجته الحتمية هى أن تكون للتقدمية فى أى مجتمع معين فى زمن معين مفهوم موضوعى واحد .

وهكذا تحتاج التقدمية فى مجتمع معين فى زمن معين الى معرفة علمية لحقيقة المشكلات التى تطرحها الظروف الموضوعية حتى تكون الحلول علمية والتزام تلك الحلول العلمية واذا قلنا « علمية » فمعنى ذلك أن لا وجود لغيرها فى استجابته الحقيقية الصادقة مع الواقع ، وهذا هو المقياس الموضوعى للتقدمية أما الاختلاف حول الحلول التقدمية فى زمن معين ومكان محدد لا يمكن الا ان يرجع اما الى :

أ) اختلاف فى مدى المعرفة الحقيقية بالمشكلات المطروحة من الظروف الموضوعية .

ب) اختلاف فى صحة الحلول المتصورة لتلك المشكلات

ج) اخفاء مقاصد ونوايا ذاتية معينة ، ولكن التقدمية ليست ، أبدا ، موقفا « ذاتيا » بل هى موقف « موضوعى » ولذا فلا بد من المزيد من المعرفة العلمية للمشكلات والظروف المحيطة بها ، ولا بد من الحوار الديمقراطى كى يسير الجدل الاجتماعى سيرته الطبيعية فى اكتشاف المشكلات معا ومواجهتها معا والبحث عن الحلول اللازمة لها معا . وكل ذلك معناه اكتشاف المقياس الموضوعى للتقدمية ، وكلما ازداد وعينا بأنفسنا وبغيرنا ، بظروفنا وظروف غيرنا كان وعينا اصيلا وحقيقيا واستطعنا الوصول الى المقاييس الاصيلة للفرز وبالتالى للقبول والرفض لما هو مطروح أمامنا .

إن التقدمية « موقف من الواقع فى مجتمع معين يستهدف تطويره عن طريق حل مشكلاته التى تطرحها ظروفه فى مرحلة تاريخية معينة . انها ليست موقفا جزئيا من احدى المشكلات التى يطرحها واقع اجتماعى معين بل هى من موقف من تطور ذلك الواقع الاجتماعى المعين عن طريق حل جميع المشكلات

المطروحة . » هذا ما استطاع ان يفهمه « اليسار » الاسرائيلى ومفكرو هذا اليسار ولم يستطع دعاة « اليسار » فى الوطن العربى فهمه . فهل يمكن أن تتصور ماركسيا واعيا بماركسيته يجمع فى ذهنه بين الانتماء الايديولوجى الى فكرة « رجعية » خرافية . « لا علمية » و « لا عقلية » هى « الصهيونية » وبين « الجدلية المادية » ؟ لا نستغرب ذلك ففى اسرائيل هكذا يفكر الماركسيون بينما يريد البعض من المؤمنين بـ « الأممية » **فى الوطن العربى الالتحام معهم فى نضال واحد ضد الاستغلال فى العالم قصد محوه . انها** منتهى المهازل فى هذا الوطن وأكثر من ذلك مهزلة ان البعض مازال يبحث عن جذوره التاريخية العرقية بعد ان عرفت كل أمة هويتها وذاتها منذ مدة بعيدة. أنظر الى قول الكاتب الصهيونى ماير يارى « أنا ماركسى ، ولكن ذلك لا يضطرنى مطلقا الى انكار جذورى التاريخية . عندما استعيد فى ذاكرتى الاربعة آلاف سنة من وجودنا كشعب . ففى خلال ألفى سنة منها قمنا بتنمية أنفسنا قوميا وحضاريا فى وطننا - لاحظ وطننا - بينما قضينا الالفين الاخرين فى المنفى ، فى العذاب ، فى الاضطهاد ، وكذلك فى **الحنين القومى** للوطن ، نعم عندما ادرك كل ذلك أشعر فى قرارة كيانى بأننى أرفض القيام بذلك رفضا صريحا . اننى لاشعر بفخر رفيع القدر حيال هذه القوة وهذه الحيوية الشديدة التى ساعدتنا على وقاية انفسنا والحفاظ على وجودنا منذ ذلك العصر السحيق حتى جيلنا هذا » (راجع العدد الخاص من « الازمنة الحديثة » Les Temps Modernes لسارتر جوان 1967 ، حيث تجد مجموعة من المقالات لما يسمى بـ « اليسار الاسرائيلى » اعتداء على اليسارية والتقدمية. كما تجد مقالات لليسار العربى . صدر العدد قبيل حرب جوان 1967 بقليل . وكانت الحرب دليلا قاطعا على ما يجب أن نفهم من كلمة « اليسار » و « التقدمية » فى اسرائيل او فى الغرب . راجع التعليق على هذا العدد بمجلة الهلال المصرية 1968) .

لنعد الى شيء من التفصيل لما ذكرناه آنفا بصورة مجملة .

إثر تحرر العالم الثالث من الاستعمار المباشر وجد نفسه مثقلا بمشاكل التخلف على المستوى الاقتصادى والاجتماعى والثقافى ، وكان لزاما عليه أن يجابه كل ذلك مجابهة مزدوجة : داخلية وخارجية أى تجاه ظروف التخلف وتجاه تحديات العصر والاستعمار فى شكله الجديد غير المباشر ، ولما كانت فترة الاستعمار قد خلقت بعض الحلفاء له والملتزمين بتحقيق مصالحه ومصالحهم على الصعيد الاقتصادى والسياسى والثقافى وتكونت نخبة مثقفة وقد تشكلت

عقليتها تشكلا غربيا بالانتماء الى فكر الغرب وسلوكه وذوقه وقيمه ومعتقداته ولما كان هذا نبات بيئاته الاروبية ـ فالافكار مهما كانت عالميتها وانسانيتها لا يمكن الا ان تكون استجابة لواوقعها كانعكاس او تجاوز ـ فانها اصبحت تعيش فى مناخ اصطناعى وتمثل قشرة تحجب وراءها واقع البلاد واسلوب حياته ومشكلاته وآماله ، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فان ما نقل عن الغرب عن طريق هذه النخبة كان رصيدا مشوها من الفكر الليبرالى عن الحركة والديمقراطية والدولة ، واليمين واليسار ، والرجعية والتقدمية ، والتقدم والتخلف .. الخ بينما التطور الاجتماعى فى حقيقته وجوهره بالنسبة لاى مجتمع يبدأ من نقطة الالتقاء بين الماضى والمستقبل أى بين الظروف والحاجات . ومن نقطة الالتقاء تلك تتولد الحركة الجدلية (راجع د. عصمت سيف الدولة أسس الاشتراكية العربية) . فما هى خطوات تلك الحركة الجدلية الواقعية ؟ انها :

1) معرفة المشكلة : والمشكلة هى نقطة التناقض بين الظروف والحاجات وتحدد المشكلات طبقا لأبعاد معينة :

أ) على المستوى الرأسى للمجتمع : أى تلك التى يعانى منها الناس جميعهم . وهذه هى المشكلات العامة .

ب) على المستوى الافقى للمجتمع : أى تلك التى يعانى منها أفراد معنيون أو قطاع من الناس وهذه هى المشكلات الخاصة .

ج) على المستوى الحركى التطورى للمجتمع : أى تلك التى يكون حلها شرطا لحل ما يليها من المشكلات وهذه هى المشكلات الأهم او الملحة .

2) البحث عن الحل : وهنا تطرح كل الحلول ـ لان الانسان كائن يخضع فى تطوره لقانون الجدل ، أى فيه تتناقض ظروفه مع حاجاته فيكون الصراع ويكون له من ذلك الصراع حل مهما كان نصيب هذا الحل من الخطأ او الصواب ، فالانسان جدلى . حتما ـ فلا يمكن الوصول الى الحلول الصحيحة فى المشكلات المختلفة بتجاهل الحلول التى يضعها الناس لمشاكلهم تطلعا الى مستقبل افضل . ولما كان الحل الصحيح هو ما يرضى الناس جميعا اى ما يتضمن كافة الحلول الفردية . فالوصول اليه يقتضى :

أ) معرفة الحلول التى كونها الناس أى تبادل الرأى بين الناس بدون قيد .

ب) تفاعل تلك الحلول خلال الجدل الاجتماعي لتنتهي الى حلول جماعية .

ج) تنفيذ الحل بالعمل ويجب أن نلاحظ أن التطبيق لا يكون الا لحل واحد فى مشكلة محددة مهما تعددت الحلول المطروحة فاختلاف الرأى لا ضرر منه طبعا .

للجدل الاجتماعي حيث أن لكل مشكلة حل علمى واحد فى الظروف الواحدة .

أما اختيار الحلول فتكون فيه الكلمة الفصل لـ « الأغلبية » من الناس . واذا كانت « الأقلية » ليست راضية عن الحل فلها أن تمارس حرية الرأى لكى تنقل وعيها للمشكلة ورأيها فى الحل الى « الأغلبية » ولكن ليس من حقها توقيف التطور بتعطيل الحلول المقترحة الى أن يصبح رأيها هو رأى « الأغلبية » .

ان أسلوب المجتمعات الحرة فى حل مشكلاتها هو ما نعبر عنه بـ « الديمقراطية » وليست هى فى الحقيقة الا حركة التطور الجدلى الاجتماعي دون وجود معوق يعطل هذه الحركة سواء أكان مصدره طبقيا أو سياسيا أو اجتماعيا أو فكريا ان حركة التطور الاجتماعي الجدلية هى حركة تتنافى وكل ألوان الارهاب مهما تنوعت مصادره .

وليست « الديمقراطية » الا مبدأ « الشورى » الذى ورد مجملا فى تراثنا الدينى ، وترك لحركة التطور الانسانى ان تعطيه مضمونه الملائم لكل مكان وزمان ، وليس من الخروج عن المألوف التراثى أن نقول أن تاريخنا العربى الاسلامى عرف « اليمين » و « اليسار » بالمفهوم الذى أسلفت لمعنى كل من « الرجعية » و « التقدمية » (راجع كتاب : اليمين واليسار فى الاسلام لأحمد عباس صالح) .

تحية الشعر لرجل الفكر

شعر: مصطفى الحبيب بحري

بمناسبة تدشين السيد **محمد مزالي** وزير التربية القومية
للمدرسة الثانوية 3 أوت 1903 ببئر علي – (77/3/14)

لولا أبو الفكر ما أغراني النغم — ولا استجاب لخفقات الهوى قلم
ولا نثرت لآلي الشعر من كبدي — ولا أثار دمي خلق ولا عدم
يا صاحب الفكر هل تشدو على فنن — بلابل الروض لو شطت بها قدم
ما كنت أحسبني أسمو على ألمي — ولا ظننت بأن الجرح يلتئم
لكنما أنت فوق الاهل ما فتئت — بك المشاعر تغريني فأعتصم
لكنما أنت – والأيام شاهدة – — من راحتيك يفيض الخير والنعم
هذى المدارس آيات ، بها نطقت — مآثر لك منها تختفي الظلم
معاهد النور في أيامك انفتحت — أبوابها ، في وجوه النشء تبتسم
وراية العلم في آفاقنا خفقت — في ظلها استيقظت من نومها الهمم
سموت بالفكر حرا ، لا تجاذبه — أيدي الغواية ممن دينهم ظلموا
ومن أضاعوا طريق الحق واجترؤوا — على العروبة والاسلام واجترموا
فكنت نور الهدى تبني العلا قمما — فليحي بانيها ولتخلد القمم

★ ★ ★

في دولة الشعب قد حققت ما طمحت — اليه أرواحنا فالمجد مبتسم
وكم تغنيت بالخضراء تربية — وللشباب فتحت الخلد فاقتحموا
وكم زرعت الفدى في الجيش فالتحمت — قواته ، في سبيل الحق تلتحم
وكم وكم لك في التاريخ من أثر — الفكر يشهد والقرطاس والقلم

★ ★ ★

عذرا أبا الفكر ان قصرت في كلمي — وان عجزت فما في العجز ما يصم
ففي المواقف قد لا يفصح القلم — وللعواطف قد لا يستجيب فم
وغاية الشعر أن حياك شاعره — فعشت للفكر وليخفق لك العلم

الحرباء

قصة : حياة بن الشيخ

واليأس يلاحقنــي

والحقد يمزقنــي

وأنا أجرى فى الشوارع الممطرة ، طفلة مذعورة تطاردها جنية شريرة تحاول أن تغرس سكينها فى قلبها البكر ، تنتزعه عنوة من صدرها المولول بأحـلام الشباب لتفتح كنزا مدفونا من الاف السنين ينتظر قلبا يفور دما بكرا ليهب ذهبه وجواهره المكدسة عبر العصور ترقب الفاتح المنتظر .

وأنا أجرى ، يتعثر عمرى اللاهث تحت قدمى ، ويتأوه شبابى فوق أتربة الطريق الموحلة ، ألملم الحزن عن اجفانى حيث تتلألأ دموع حائرة ، محرقـة الندى تكتسح الطريق أمامى .

أجرى .. أجرى .. هاربة من جبال الصراع .. أين أهرب ؟ اليأس يلاحقنى ، والحقد يقتلع جذورى . وانا متعبة كحيوان صغير أنهك الطاعـون جسمـه ، يرتعد ويرتعد وينتظر الموت على أمل فى الخلاص من آلامه الفتاكة .

الطريق تمتد أمامى كثعبان رهيب . الوجوه ترعبنى ، تذكرنـى بفجيعتـى ورغبتى المدمرة التى تسحق صدرى منذ أمد بعيد .

وأنا أبكى .. وأنا أهذى .. وأنا أصلى وانتظر صياح مؤذن فى مسجد مـا يذكرنى بأن الله لازال فى علياء سمائه ويمكن ان ينتشلنى فى يوم من الايام . أجرى الى لا مكان .. الى لا زمان . هاربة من رغبتى وطيفك الساحر الـذى قادنى الى هوة فجيعتى يهشمنى ، يسد فى وجهى سبل النجاة ، يدفعنى عنوة الى المقصلة وما على الا ان أحب جلادى ، أقبل يده وهو يهوى بالمقصلـة عـلى عنقى الذى قبله ذات يوم وطيف ظلال يتراقص فى عينيه العميقتيـن كبحـر سحيق الغور .

أبقى أمتص عذابي وانا أحاول انا اخنق صوت الهاتف البغيض الذى يستبد بى ويطاردنى كلعنة كاهن خبيث أقسم أن ينتقم من رعية مشاغبة . تظل اللعنة تطاردنى ، وانت يا جلادى تصلبنى فوق مشانق ملتهبة وتتسلى بشواء جسمى الملهوف اليك .

الصوت لا يفتأ يشرخ أعماقى ، يحثنى على الموت ، أقتلى .. أقتلى ، ويضيع الصدى الدامى بين عويل نفسى المنتحبة ، ودموع عيونى الثكلى .

فأبقى وآلاف المسامير الصدئة تنخر رأسى الموجعة وتدق آلاف المشانق لأناس لا أعرفهم ، انما يدفعنى شعور صاعق لكى أقتلهم . أمزق .. أروى الافعى الجريح المعربدة بأحشائى دما احمر كشفاهى لما كنت أطليها بالاحمر القانى وانا ذاهبة للقائك كى أطبع قبلة ملتهبة بخدك . قبلة حمراء كدم يمامة ذبيحة ـ أتلذذ برؤية الوشم الاحمر على الخد الابيض والف نشوة تعود بنفسى ، أنت لى .. هذا الرجل لى وحدى . وشم شفاهى لا يزال فوق خده . دماء شفاهى تنزلق فوق عنقه الفاتن كتمثال مرمرى فى متحف أثرى نفيس الكنوز . أبقى دوما ارنو اليك مصعوقة ، وذعر مرعب يشل حركتى ويعمى بصيرتى . لو انشب مخالبى فى وجهك الفاتن الذى ابدع الاله تصميمه ، أمزقه كما يمزق الصقر جثة طير صغير ، انهش الجسم البديع الصارخ روعة كما ينبش غراب مقبرة مهجورة تبعثرت هياكلها على الثرى . انشب أنيابى المسمومة فى جثث كل العابرين المتسكعين حولى ، أشباه البشر واريد .. واريد .. لكننى اهرب دوما . أهرب من مستنقعات الدماء لتتلقفنى دوامة الفشل والضجر وانا ارتعش .. والارض ترتعش .. وقلبى الممزق يرتعش خوفا .. والخنجر فى جوف حقيبتى يرتعش ويكاد يشتعل نارا يلهب الكون حولى ويلهبنى . ووجه السماء يسود مع اللحظات الراكضة نحو العدم . السحب تزداد تلبدا . الرياح لا تكف عن العواء كخلية ذئاب خرجت مزمجرة فى الحقول . وانا اجرى فى الطريق الملتوية يتعثر عمرى اللاهث تحت قدمى ويرقص الخنجر فى جوف حقيبتى يدعونى لمعزوفة الموت ، وانا لا بد ان افعل شيئا . لا بد ان أخط نهاية المأساة .

أضع رأسى فوق جذع شجرة وانا أكاد أنهار . أهوى الى اعمق أعماق الحضيض تتقدم منى متسولة بلهاء تترنح كضفدعة مشوهة الوجه يتسلق ظهرها طفل كجرو أجرب .

ـ حسنة لله أيتها الحسناء ، اطعمى هذا الطفل المسكين .

أرنو اليها بغيظ مبهم شرس لا اقدر على كتمانه . تتصارع أشياء واشياء بصدري . تتلوى الافعى الثائرة بقلبي تكاد تهده هدا . ترمقني في مسكنة مصطنعة . جروها المتسلق ظهرها يبتسم بغباء ساذج يكاد يدمرني . أسألها وانا أتماسك كي لا انقض عليها اخرمش وجهها الوقح .

ـ كيف استطعت الحصول على هذا الطفل القذر ؟ أهو ثمرة ليلة غرام بين أحضان لئيم ما ؟

فتحت عينيها وأشباح استنكار ملح تعربد فيهما .

ـ انه ابني . زوجي مات . دهسته سيارة وهو يترنح مرضا من داء السل الذى ألم به . فبقينا بلا سند .

ـ أكان لك شبه رجل .. يا لأعاجيب الزمن الحقير !!

ـ لقد كان مسلولا ومع ذلك كان لا بد ان يجوب الشوارع ليتدبر بعض المال نسد به الرمق .

ـ لما لا تموتين أيتها الضفدعة .. الضفادع لا بد ان تموت

ـ لكن ماذا فعلت ؟ أنا لا اريد أن أموت .. لا اريد

ـ جروك مسلول هو الاخر ولا بد ان يلفظ رئتيه دما افهمت ؟

ـ سامحك الله يا بنتى .. سامحك الله

تروح مهرولة تسابق رذاذ المطر الذى اخذ ينهمر ، أشيعها بقهقهة حادة تكاد تجهض كبدى . انا ابنتك ايتها البلهاء ! الا تعرفين ان امى انتحرت يأسا بعد إن قتلت أبى . قتلته كالفأر الموبوء الذى لا بد ان يموت ليخلص الجو من وبائه . دست له سم الفئران بعد ان علمت انه سيتركها هى وابنتها الرضيعة ليتزوج من ابنة عمه الثرية .. لقد سارا خلف انواء مصيرهما وخلقا طفلة ملعونة تدحرجت سنوات فى كهف اليتم والتشرد ، لتحب ذات يوم وتسحق بغرام رجل ما . وتقدم شبابها قربانا لتنتقم من رجل ما !. ألا تعرفين ذلك ايتها الحمقاء ؟ وانا الاخرى سأموت حقدا ولوعة ان لم أقتله وأغسل قدمى بدمه الفاجر ، ستكون حناء عرسى . سوف أزف لحبيبى وجسمى قد كبل بأكفانى وبقدمى حناء دمه الملوث فسقا وفجورا .

الصوت الرهيب يطن فى أذنى كناقوس كنيسة ينعى أحد الاموات . لا بد أ ن يموت . لا بد .. انه فاجر كالحياة .. مخادع كالزمن .. لئيم كالقدر . لا بد

أن أطهر العالم من شروره ، هو الصحفي الشهير الذى تشتعل مقالاته حماسة ووطنية وتمتلأ صفحات جريدته بكلام معسول يضج محبة وخيرا للجميع . يطن قلمه باضخم تعابير الاخاء وصفاء الضمير ، وهو أول من فقد ضميره فى سوق الرياء . يحارب اللؤم وهو اول لئيم يمتص دم الاغبياء الذين يقرؤون ترهاته . يوعد الناس بعبير الياسمين وهو يزرع بساتين الدنا بالصبار والدفلى ، يوعد الحمقى بلذيذ العسل بينما يحفر تحت اقدامهم خنادق الطاعون ليغرقهم فيها . هذا الرجل صاحب الوجهين ، مايزال صوته ثائرا فى سمعى :

ــ ليس الانسان بما يقوله .. يمكن أن نقول اشياء ، ثم نضطر لفعل أى أمر مضاد لما نقول وندعى .

ــ تريد ان تقول يعيش مزدوج الشخصية . بقناعين مختلفين ، لكل موقف قناع .

ــ لم لا .. الحياة نفسها تتطلب ذلك . الزمن يجبرنا على ان نقول ما لا نفعل ، ونفعل ما لا نقول ، والانسان لكى يكون ناجحا فى اعماله وحياته لا بد أن يسير فى طريقى هذا ..

ــ أى يكون حرباء بشعة تتلون حسب الظروف ؟

ــ نعم هذا هو عين الصواب يا طفلتى .. الحب .. السعادة .. الخير .. المحبة .. كلمات براقة جوفاء تغرى عقول المراهقين ، لكن هى الاخرى مدية ذات نصلين يمكن ان تودى بصاحبها ان لم يحسن استعمالها وفهمها . الحياة ليست بحارا لازوردية انما خلف تلك البحار مستنقعات قذرة هى جزء من عالمنا لا يمكن ان نتجاهله .

ــ اهذه انسانيتك ؟

ــ انسانيتى أكلتها ذئاب الفاقة المزمجرة فى غابات الزمن .

ــ أين ضميرك ؟

ــ نهشته غربان الصراع اليومى من اجل القوت وبعثرته فى خراب الوجود الكبير .

ــ أين قلبك ؟

ــ قلبى مات ، افتقدته منذ فتحت أعيني لاجد نفسي في أدغــال الكــون ، كحيوان وحيد لا بد أن يصارع ويجاهد اليوم كله ليتدبر القوت له ولمن حوله. قلبي مات من يوم أن عرف ان الحياة جهاد مرير وكفاح مضن ونفاق مستمر وليست كلمات معسولة وعواطف غبية . مات يوم عرف ان القيم هى ســلاح الاذكياء يشهرونه فى وجوه الاغبياء ليتحكموا فى مصائرهم . لم تمنع القيــم أبى العامل البسيط من الموت فوق فراش العجز والمرض . يموت وهو مشلول ليس بجيبه ثمن الدواء يسكت به وخزات الالم التى تفتت جسمه المنهــوك . طرد من عمله ظلما . لماذا ؟ طبعا من اجل قيمه ومثله وعدم غشه للناس الذين يتعامل معهم . من اجل ان قال لصاحب المحل الذى يشتغل به ــ انه لــص ــ يتاجر بعرق العاملين ويتسلق ظهور الحرفاء المغفلين ليدخل المجتمع الراقى .. لقد كان غرا خدرته انسانيته ومثله العليا ، فراح ضحية لها .

ــ أنت الآخر دون أن تدرى ، ضحية ماض معتم ومركبات عشت طفولتك تتخبط فى شباكها .

ــ أنت فتاة عاطفية حمقاء ، اشفق عليك من اوهامك . فتاة غريرة تبحث عن حبات الجوهر فى المستنقعات الضحلة .

ــ الجوهر الذى ابحث عنه هو الجوهر الساكن فى ينابيع نفسى الطيبة . هو طهر سريرتى ، ونقاء عواطفى . هو قلبى الذى لم يزيفه لؤم الحياة ، ولا أثر فيه خبث المنافقين . يوم احببتك ، أحببت فيك الدنيا وكانت مرآة صافية أرى فيها نقاء العالم ، وصراع الحياة ما هو الا الطريق الذى لا بد ان نجتازها لنصل الى السعادة التى تهفو اليها مشاعرنا ولا بد ان نشقــى من اجلهــا . كانت الحياة شبه كفاح مع الزمن ، فجعلتها انت حقدا ونقمة تلعن الزمــن . أيها الثعبان العجوز يا من ملأت الكون حولك حكما سقيمة وسممــت العــالم بزيف مثلك ، ما انت سوى رجل قذر لا يفكر الا ان يصل ويرتقــى ســلالم المكر حتى ولو كان ذلك فوق جثث من احبوه .

ــ أفضل ان اكون ثعبانا على ان اكون فأرا مذعورا يلوذ فرارا كلما لمــح طيف قط قادم بكل شموخ . هل ستشفع لى قيمى ومثلى بدخول مصحــة ، أجرى عملية للقلب دون أن أدفع فلسا .. ولا تنسى اخوتى الصغار ، هم كذلك يريدون ويريدون .. بماذا سأسد افواههم .. أين ضميرى فى كل ذلك ، لــم أجد غير قلبى المتعب المريض وهذا العالم الفاسد الذى لا يرحم ، هــذا كــل ما حولى

ـ لكن هل حقا لازلت تملك قلبا يستحق العملية ؟ ألم تقل انه مات .. أنا لا أصدق ذلك أيتها الحرباء ذات الالف لون .

ـ أنت فتاة حالمة متهورة .. اصبرى .. وحاولى فهم الحياة ..

مازلت متكئة على جذع الشجرة الهرمة وشريط الذكريات يجتاح عينى ، وأنا أتلون يأسا دون أمل فى النسيان ، فظننت أنى أجهضت قلبى يوم أجهضت بطنى لاخلصها من جنين يعيش والده على الزيف والكلمات المعسولة التى تبهر عقول الاغبياء . ظننت ان كتلة الدماء المتجمدة فى الوعاء التى أرانى اياها الطبيب وهو يرمقنى برثاء مصطنع ستبعدك عن افكارى الى الابد.

ـ هذه الكتلة من الخلايا الدامية كان يمكن لها ان تكون طفلا رائعا فى يوم ما .

نظرت الى الوعاء المملوء دما ولم أتكلم ، انما اخفيت رأسى تحت الوسادة لابكى لوعتى وأفرغ أيامى دموعا وعويلا أخرس النواح .

ولما ودعت رائحة الادوية والاسرة البيضاء كقبور لاناس فى طريقهم الى الموت واصطدمت برائحة الهواء الطلق والتراب الممزوج بعبير المطر ، قلت يوما ، ربما اجهضت قلبى وقتلت حبى مع جنينى الذى اغتصب من احشائى الثائرة وكان من الممكن ان يكون طفلا رائعا كما قال الطبيب الابله الذى لا يعرف ان ابن الحرباء لا يمكن ان يكون الا حرباء . وابن الثعبان لا يمكن ان يكون سوى ثعبان .

ولم انس ، ومرت الاشهر وفجيعتى تتفاقم وحقدى ينمو وينمو ليغرقنى فى بئر ما لها قاع . يدفعنى الى الانتقام ، الى ذبح الحرباء وشرب دمها . أتمنى أن أقتل كل حرباء ملونة ، تتسكع فى الشوارع لأرى بطنها ينز دما كدمى الذى ملأ يوما وعاء المستشفى لتحمله ممرضة بلا مبالاة لترميه فى المراحيض وهى لا تدرى انها تدفن ابنتى الموؤودة ، ضحية رجل فاتن المحيا ، قذر الاعماق ، أغمض عينى وعشرات الوحوش الكاسرة يختلط عويلها بنحيب آلاف الاطفال الممزقين يذكرنى ان فى محلات المدينة مادة اسمها سم الفئران ، وخناجر مذببة يمكن ان تكون حلية لعنق حرباء ملونة .

غير ان يدى ترتعش .. والخنجر يرتعش فى جوف حقيبتى ، وجسدى المبلل ماء يرتعش .. والسماء الغاضبة على اشياء مجهولة ترتعش .. والاشجار .. والناس .. والكون كله حولى يرتعش . وكم كنت قبل اليوم ارتعش وانا

بين ذراعيك وردة فيحاء فى يدى بطل مزهو بانتصاره ، كنت ارتعش حبا ولهفة ، وانا فرحة وعشرات القيم والمثل العليا والمبادىء السامية تتراقص أمام أعينى كأنجم متلألئة فى سماء صافية .. والناس .. والايام .. والزمن والحياة كلها أغنية حب مشحونة حنانا وثقة تغنى للغد الباسم . كنت أحب وجها واحدا مشرقا ، فاتنا لرجل يسكرنى زهوا ولم تكن الحرباء قد أعلنت عن نفسها . لم يكن الثعبان قد استيقظ ، بل كان مستكينا تحت الاقنعة ، الكثيرة التى كنت تدبلج بها وجهك . أنى ان ترنم ناى فى الغاب القريب يصدح بنواحه ، فاستيقظ الثعبان وتمطى وهرول راقصا على معزوفة الغاب . فعرفتك وعرفت لحظتها ان سم الفئران الذى قتل به أبى مجرد بيضة لذيذة فى فم ثعبان ماكر مثلك ، وان المشرط الذى مزق أحشائى ذات يوم ، لا بد ان ينغرس فى صدر الحرباء الملونة ليغتصب الروح منها كما اغتصبت روح طفلتى الموؤودة التى ابتلعتها هوة الفناة ، قبل ان تكحل عينيها بنور الحياة .

ولا ازال انتظر .. والخنجر فى جوف حقيبتى ينتظر ، يتململ قلقا ، والسيارات أمامى ترتعش فى عدوها ، والصوت الرهيب يحثنى على النهاية . لا بد أن أجمع أشتات عمرى المبعثرة تحت قدميك . لا بد ان .. فجأة انزلقت سيارة ، ارتطمت بجذع شجرة ضخمة .. والشارع ضيق .. ضيق تكتسحه الاوحال ، شىء ما يفرقع . السيارة تشتعل . سيارته هو .. والخنجر فى الحقيبة يشتعل . أجرى نحوه يتعثر عمرى اللاهث تحت قدمى . رأسه البديع مشروخ الى شطرين كما كان قبلا يتباهى بانه يعيش بوجهين . الدماء تنز منه بوحشية ، من جبهته التى كانت تناطح السحب غرورا وتحديا . أضع رأسى فوق صدره . تتدحرج الحقيبة بين أقدام المزدحمين حولنا . السيارة تحترق اللهب يغمرنا وهو بين ذراعى . سعادة لحظات لم أعشها قط تجتاحنى . أنقاد لتيارها الصاعق . نحترق معا .. الايدى تتشابك حولنا . الضجيج يزداد. صوت الشرطى الثائر يحاول اقتناص عمرى المتعثر تحت قدمى ، الملتصق بجسده الذاوى ، فيضيع صوته بين الضجيج والعويل . ولا يجد شيئا . سوى عين حرباء مفقوءة تنز دما ، تتدحرج أرضا . يأخذها بين يديه بخوف غاشم ، يلفها فى منديله الملون ليهديها الى زوجته العاقر كى تحميها من سحر عين الحاسدة . ويضيع الكل .. يضيع وسط الضجيج واللهب . وتعود السماء تمطر .. وتمطر .. وتمطر .

حنين الصادي

شعر : محمد الشعبوني

وقفت تراجع أمسها وتنادى — أين الفتى المقدام يا أولادى
أين الذى قضى حياته ثائرا — لا يستكين ولا يلين لعاد
وله بأفريل (I) الجزيل رسالة — والى الفدا قد كان خير مناد
قد كان شعلة جيله لا ينطفى — منها اللهيب على مدى الآماد
هو ثورة اذكت مشاعر أمة — وسمت بيوم حمية وجهاد
هل تذكرون نداءه متشامخا — البرلمان به حياة بلادى
هو (ثورة الفكر (2)) التى أحيا بها — روح الحياة وجد فى الايقاد
يا (أمة (3) نحن) الذين تعاهدوا — أن ينقذوها من لظى استعباد
يا (تونس(4)الخضراء ثرت)على الدجى — وأتى الصباح وطاب صوت الشادى
وتتابعت زمر الحياة وفية — تمضى الامام وغاب صوت الحادى
ان غاب عنا (البلهوان) بجسمه — فهواه فى الاعماق والاكباد
أو ما سمعت نشيده ما بيننا — يمتد فى عمق وفى ابعاد
والشعب لا ينسى الوفاء لمن سعوا — ليروه فى عز وفى اسعاد
ان كان سعى الامس سار بشعبنا — متحررا من ربقة الاصفاد
فالعهد هذا عهد فرحة أمة — تبنى الحياة وركبها متماد
ولنا بروح (البلهوان) وعزمه — وصل من الآبا الى الاحفاد
والروح لا تصفو بدون ثقافة — والزهر لا ينمو بغير سماد
وترابط الاجيال سر نجاحنا — ومحاسن الاخلاق خير الزاد
وقفت بلادى والحياة طليقة — تملى على الاجيال وحى رشاد
وأتى صفاقس مستجيبا رائدا — متحمس من خيرة الرواد
وسما الحديث على لسان (محمد(5)) — و (بفكره (6)) المتجول الوقاد

والمؤمنون يواصلون مسيرهم متآلفين على كريم مباد
يا نشء هذا الفتح فتح زاهر يحيي عهود رجالنا الامجاد
نحن الحماة لديننا وتراثنا وحماة مجد فطاحل الاجداد
متفتحين على مباهج عصرنا والعصر عصر الخلق والايجاد
يا إخوة لبوا نداء لقائنا دمتم ودامت بهجة الاعياد
دمتم لتونس هالة وضاءة وشعاعها يعلو سماء النادى
وصفاقس الغناء وحى عزائم ونداء ايمان وصدق جلاد
وأنا وحق العلم جئت مبايعا للركب يدفعني حنين الصادى
أنا ما حييت لتونس الخضرا الصدى ولخير تونس ما حييت أنادى

---

1) مظاهرة 8 أفريل 1938
2) ثورة الفكر : اشارة الى تاليف المرحوم البلهلوان
3) نحن أمة : اشارة الى نشرة المرحوم البلهوان
4) تونس الثائرة : كتاب له أيضا
5) هو الاخ محمد مزالى الذى دشن يوم 14 مارس 1978 معهد علي البلهوان
6) اشارة الى مجلة الفكر التى يصدرها الاخ مزالى .

أصداء الفكر

للصادق شرف
(أبو وجدان)

◆ **ملتقى الشعر التونسي :**

يقوم اتحاد الكتاب التونسيين بتنظيم « ملتقى الشعر التونسي » وذلك على طول وعرض المساحة الزمنية الممتدة من يوم الجمعة 21 الى الاحد 23 أفريل 1978 بدار الثقافة ابن رشيق وموضوع الملتقى هو « دراسة التجربة الشعرية التونسية شكلا ومضمونا منذ الاستقلال الى اليوم ·

المحاور :

1 ــ اتجاهات الشعر التونسي المعاصر ·
2 ــ اهتمامات الشعر التونسي .
أ ــ قضايا التحرير والحرية .
ب ــ الواقع السياسي والاجتماعي ·
ج ــ النزعة الانسانية العامة ·
3 ــ اشكال الشعر التونسي .

طريقة العمل :

يعقد الملتقى بمشاركة مجموعة من نقاد الشعر العرب والمستشرقين المهتمين بالادب العربي الحديث .

1 ــ ناقد عن كل اتحاد كتاب عرب يربطنا به اتفاق تعاون
2 ــ دعوات اسمية لمن لا تربطنا بمؤسساتهم اتفاقيات ثقافية .
3 ــ شعراء ونقاد تونسيون واساتذة من الجامعة التونسية .

◆ **الصحافة الهزلية في تونس :**

هذا كتاب للصديق الاستاذ حمادي الساحلي يتحدث فيه عن نشأة الصحافة الهزلية في تونس من سنة 1906 الى سنة 1964 وقد اهدانا هذه النسخة صديقنا الاستاذ المنصف شرف الدين الذي أصدر هذا الكتاب عن دار ابن شرف للنشر التي أسسها أخيرا . تهانينا اليه عن هذا العمل الذي يخدم النشر في تونس وتمنياتنا بالنجاح .

• **من تاريخ بلادى :**

« رمادة الصامدة » : تحت هذا العنوان اصدرت مطبعة الجنوب ـ مدنين ـ كتيبا قيما يلخص فيه المؤلف : يوسف بن صالح . معركة رمادة الخالدة الحلقة الذهبية من سلسلة معارك الجلاء العسكرى عن أرض الوطن الحبيب . وقد جاء فى مقدمة هذه النشرية التى كتبها الدكتور الصادق المقدم رئيس مجلس الامة قوله : إن الامم الرشيدة تبنى ذاتيتها وترسى قواعد اصالتها على معرفة صحيحة لتراثها ولامجادها وتدعم كيانها الذاتى ببث بذور عميقة فى ماضيها ، وبالتعريف ببطولتها • وهكذا تنشأ فى الفرد روابط تشده شدا حضاريا وأدبيا للمجموعة البشرية التى ينتسب اليها •••

وقد تحلت النشرية ـ الموجهة لاطفال بلادى فى خط مشكول وانيق ـ بصور موضحة لقائمات شهداء الجهاد وللنصب التذكارى المقام لهم فى رمادة الصامدة كما تزين الغلاف بصورة لمدخل مقر الفوج الترابى الصحراوى للجيش التونسى •

اتحاد الكتاب التونسيين يجيب :

نشرت جريدة العمل فى عددها الصادر يوم الثلاثاء 7 مارس 1978 نص « سؤال الى اتحاد الكتاب » فى الصفحة الخامسة يعلن فيها صاحبها عن الدوافع التى جعلته يهتم بالكتابة والكتاب والتى من بينها هوايته لكتابة الشعر الذى نشره فى بعض الصحف . وان كنا لم نقرأ له من قبل ولم نسمع به فيما مضى. لربما تكون معرفتنا به مستقبلا وانطلاقا من هذه الرسالة التى بناها على نقطتين :

1) ان اتحاد الكتاب التونسيين يملك بدون شك كل المعطيات الحقيقية عن احداث 26 جانفى 1978 واسبابها ونتائجها . ومع ذلك فقد كان من المنظمات التونسية القليلة التى اختارت الصمت ولم تعبر عن اى موقف ازاء هذه القضية وقد كان فى امكانها بالتعبير عن الحقيقة ان تفيد حتى اتحاد الكتاب الجزائريين فلا تدعه ينزلق فى المتاهات .

(2) وقد كان بامكان اتحاد الكتاب التونسيين ان يرد الفعل بعد تهجمات اتحاد الكتاب الجزائريين على تونس ، تصحيحا للموضوع لكن ذلك لم يقع ايضا واختار اتحاد الكتاب التونسيين الصمت • فلماذا ؟ ذلك هو السؤال الذى نوجهه لاتحاد كتابنا الذى لا نريد أن يكون من انصار الجلوس على الربوة فى حين أن دور الكاتب يفرض ان يكون فى طليعة الكفاح والعمل » .

وقد رد اتحاد الكتاب التونسيين على « السؤال » يوم الجمعة 10 مارس 1978 بجريدة العمل الصفحة الثالثة وهذا النص الكامل للرد :

قرأت هيئة اتحاد الكتاب التونسيين خلال اجتماعها المنعقد يوم الثلاثاء 7 مارس 1978 فى منبر المواطن بجريدة العمل الصادرة بنفس التاريخ « سؤال الى اتحاد الكتاب التونسيين » وقد وقع التنبيه الى ذلك فى الصفحة الاولى لاهمية السؤال حسبما يبدو .

ونحن اذ نشكر لجريدة « العمل » اهتمامها باتحادنا باعتبار ذلك بادرة طيبة نلاحظ ما يلي :

(1) ان بيان اتحاد الكتاب الجزائريين لم ينشر بالصحافة التونسية ولم يقع اشعارنا به من اية جهة مسؤولة حتى نرد عليه ، بل انه وقع بين ايدينا بصورة عفوية فى قصاصة لوكالة تونس فريقيا للانباء منقولة عن الوكالة الفرنسية ، ومع ذلك اجتمعت الهيئة وناقشت البيان كلمة كلمة . وبعد مناقشة الجوانب الايجابية والسلبية من اتخاذ موقف علني وقع الاتفاق على ارسال مكتوب الى اتحاد الكتاب الجزائريين لاستفساره عن حقيقة الامر وللتعبير عن اندهاشنا الشديد لما ورد فى البيان المنسوب اليه من عبارات نابية ، وقد ارسل المكتوب فعلا بتاريخ 23 / 2 / 1978

(2) ان الاديب التونسي « لا يجلس على الربوة » بل هو يشق طريقه بصعوبة وسط الجلبة والزحام علاوة على كونه يتجنب المواقف التظاهرية ولقد عبر غير ما مرة عن مناهضته للعنف حيثما كان وعن تمسكه بالوحدة القومية وعن تأييده لكل عمل ايجابي رصين يدعم تلك الوحدة . »

ونحن بدورنا نرحب باهتمام صحافتنا بالادب والادباء ونعتبر هذه العناية بادرة طيبة من القراء ووسائل الاعلام تتبعها ولا ريب خطوات اخرى فى الخط المشجع البناء السليم .

• ألوان تاريخية فى مسرحية الشعب :

مولاى السلطان الحسن الحفصي تحت هذا العنوان أصدرت الدار العربية للكتاب مسرحية تاريخية للاديب التونسي عز الدين المدني وهى المسرحية الرابعة بعد : **ثورة صاحب الحمار وديوان ثورة الزنج ورحلة الحلاج** والمتتبع لانتاج عز الدين المدني بموضوعية يلاحظ أن المسرحيات الاربع ذات وحدة موضوعية وهى تتكامل فيما بينها .

وهذا التعامل مع التاريخ ان دل على شيء فهو يدل على ان عزالدين المدني يؤمن بجدوى التفاعل مع التراث لجعله معدنا كريما قابلا لصياغات جديدة

تطبع ميدالية المسرح الحديث بمؤشر العصر من جهة ، وتحافظ على جوهر المعدن من الجهة الاخرى . وفى ذلك تواصل ملحمى لمسيرة الاجيال ، رافض للانبتات مجوهر للماضى ، ومؤمن بالمستقبل تنقية للحاضر ، وذلك باسقاطات تاريخية عليه يعطيها من رؤاه الشكل والمضمون .

وبذلك يكون عز الدين المدنى كاتبا مدنيا بالطبع ، يتعامل مع ابطال مسرحياته بواقعية كما لو كانوا أصدقاء له . ابتداء من الانسان الصفر وحتى الانسان السلطان ٠

* رابطة النوادى أم رابطة الشعراء ؟

فى المدة الاخيرة تكاثر الاخذ والرد أو قل تكاثر الرد المأخوذ والاخذ المردود حول « رابطة الشعراء » فمنهم من يقول : « رابطة نوادى الشعر » ومنهم من يهمس : « نوادى رابطة الشعراء » وعندما نغربل القول والهمس يتضح لنا أن الغربال المستعمل له خاصية اسقاط النخالة والاحتفاظ باللباب ، وهذا اللباب يتمثل فى لجنة اقترحها الاستاذ الشاعر عبد العزيز قاسم متكونة من شعراء تونس المعروفين تجد جميع الاتجاهات الشعرية عندنا ممثلة فيهم ٠ وذلك فى الجلسة التى انتظمت بوزارة الثقافة يوم 24 / 2 / 78 تحت اشراف رئيس قسم الآداب الاستاذ محمد فرج الشاذلى .

وقد أخذت هذه اللجنة على عاتقها اعداد قانون أساسى سيضبط فى دفتر الولادات الطبيعية الاسم والمسمى وتاريخ ومكان ازدياد هذا الوليد المنتظر ٠

وليس مهما فى نظرنا غير الوليد نفسه . فالوليد هو المهم . والاهم هو ما سيقدمه لنا من فتوحات على مستوى تدعيم الحركة الشعرية ببلادنا واخصابها والتعريف بها ، وتحريرها من رفوف الانتظار بدور النشر ان سمح لها باجتياز عتبة تلك الدور طبعا. وهذا كله اعطاء للحركة الشعرية للاشارة الخضراء للانطلاق الخلاق الذى يتجاوز فى مفهومه الحضارى ما من شأنه أن يكون هيكلة للحركة فيها يكون الدوران ٠ ولئن كانت عملية الدوران فى مدلولها التسطيحى ركلا للارض فى مكان واحد . فهى فى مفهومها الجغرافى انطلاقة باعتبار أن الارض مدورة . فيكون الدوران التوسعى ولو كان حلزونيا انطلاقة فعالة تمنحنا اياها وزارة الثقافة فى التفاتتها الكريمة الى حركة الشعر فى تونس . وهى بذلك تقيم الدليل على انها تهتم بأهتماماتنا ولا يهتم بنا الامن كان منا والينا ٠ ولقد كان لهذا التحرك الذى تقوم به وزارة الثقافة الصدى العميق فى جيل المثقفين ببلادنا من تلك أن الاستاذ محمد مزالى رئيس اتحاد الكتاب التونسيين قد أبدى اهتماما بالغا بتلك البادرة فنحن نبارك هذه « الرابطة » ونقف الى جانبها

لتأخذ مسارها الايجابى فى تيار الثقافة الوطنية ، ولتحقق أهدافها . ودعمنا الكامل لها واجب حتى تؤدى واجبها فى التعريف بالشعر التونسي داخل وخارج تونس .

هذا وقد بلغنا أن اجتماع اللجنة المذكورة المنعقد اخيرا يوم السبت 3/4/78 بمقر اللجنة الثقافية المحلية بباب البحر قد أقر مبدأ تسمية هذا التجمع الشعرى باسم « رابطة الشعراء » وعين الزميل سمير العيادى لاعداد مشروع القانون الاساسى للرابطة وتقع بعد ذلك دعوة الشعراء (أرجو أن تكون الدعوة هذه المرة مسموح لها بالشمول) وذلك ليكون تدارس القانون الاساسى قبل المصادقة عليه أشمل .. وأغنى .. ويمس جميع المهتمين ويلغى الاملاءات .

فى البحث عن مقر :

البشير المشرقي ما زال يبحث عن مقر فى مملكة الكلمة الشاعرة ، والصورة الجميلة الموحية ، وفى انطلاقته الاولى فى دروب البحث اشرق نجم هذا الشاعر علينا بباقة من الشعر ضمن أول مجموعة له تضم اثنتين وعشرين قصيدة باكورة أعماله الادبية . وقد نشرتها أخيرا ـ مطبعة الحياة ـ بنزرت 1978 وقد جاء فى مقدمة هذه المجموعة التى وضعها الشاعر نفسه ما يلى :

« أيها القارىء العزيز لا تطلب من هذه المجموعة ما هو ليس منها فالشىء الذى لا أشك فيه هو انك ستجد فى هذه الاشعار من الصدق وحرارة العاطفة الشىء الكثير »

ونحن اذ ننوه بهذه المجموعة رغم ضآلة قامتها نكبر قيمتها ونشجع صاحبها لاقتحامه عقبة النشر ولا نطلب منها ما ليس فيها ، ولكن نطلب منه ما ليس لدينا .

فمزيدا من العطاء ، فالمنطلق هنا خصب وواعد . رغم « رحيل الهزار » القصيد الذى غناه الشاعر للفنانة أم كلثوم فى مأتم رحلتها الابدية .

رغم أن الزمان يطوى وينشر	ذكرها لم يزل من الموت أكبر !
أيها الصوت ، يا صميم منانا ،	وشذى الحب فى العبير المعطر
أنا منها نشوان لما أزل فى	عالم العشق مدلجا فيه مبحر
ليس يفنى من عاش فينا نبيا	وحيه الفن من فراديس عبقر

وأخيرا .. صح الخبر :

وانحسرت الاشاعة عن الخبر اليقين الذى كان له الصدى العميق فى نفوسنا .. والمتمثل فى تعيين الزميل سمير العيادى على رأس دار الثقافة « ابن رشيق » بتونس العاصمة . مديرا جديدا للدار تهانينا القلبية اليه وتمنياتنا التدعيمية له بالنجاح .

ملتقى الفنون التشكيلية :

وقاعة يحيى بتونس العاصمة هى التى تضم ملتقى هذه اللوحات التى تشكل الفن من مختلف وجوهه فى عمق لا يخلو من ايجابية وبعد لا يخلو من معاناة .. تتعانق الالوان فيها بأعناق قزحية . وأذرع تشكل فى تشابكها معرضا جميلا للاتحاد القومي للفنون التشكيلية تملأ أمواجه بحرا من الزمن المتدبين 13 و 20 مارس 1978 ..

ولقد شاهدنا جمهورا كثيفا يرتاد قاعة المعرض وتتضاعف كثافة ارتياده بقدر تعدد أسماء الفنانين المشاركين فى العرض .. ولكل جمهوره .. ورغم أن البعض منهم لم يعرفه الجمهور من قبل . فبدت لوحاته فى غمرة المعرض كالطفولة البريئة فى مزدحم الشباب الفنى الناضج ولئن كان ذلك النضج أحيانا ذا ملامح معروفة من قبل فى بعض المعارض الاخرى .

اسبوع ثقافى تونسى بالخارج

من 10 الى 18 مارس 1978 بألمانيا الاتحادية ينتظم الاسبوع الثقافى التونسى بمدينة اوبرهوسن ويشتمل على ملتقيات وعروض وندوات يقوم بها اصدقاء تونس من الالمان وغيرهم من التونسيين الذين يتلقون هناك تربصات مختلفة .

والملاحظ أن مثل هذه التظاهرات الثقافية بالبلاد الصديقة لمما يتوئم الشعوب قبل توأمة المدن ، وفى ذلك تعارف وتقارب ، خدمة للسلام بين انسان هذا العصر الذى تقف به متناقضات المادة على حافة الهاوية ، وتكاد تجره بحبل الانسحاق فيها لولا الجذور التى تشده للتعقل من لدن الرحمة الانسانية وروحانية الانسان .

- **الى رئيس تحرير مجلة « الفكر » :**

بمشاعر الأسى العميق شاركت أسرة الفكر والأدب فى تونس أخانا العزيز الأستاذ البشير بن سلامة رئيس تحرير مجلة « الفكر » فى مصابه بفقدان والده الذى لبى داعى الرفيق الأعلى فى 28 جانفى 1978 . وقد أوحت هذه الفاجعة الأليمة للشاعر الدكتور جعفر ماجد بهذه الابيات تعزية وسلوانا وتعظيما للاجر .

عزاؤك والحزن الكبير معلم ... بأنك قد علمت من فقده صبرا
وأنك قد أرضيته فى حياته ... وأنك قد أثلجت مما رأى الصدرا
فذاق بما ادركت ثمرة سعيه ... وكنت له كفؤا .. وكنت به برا
الا شمل الله الفقيد بعفوه ... وعظم فى هذا المصاب لكم أجرا

الفهـرست

العـدد 7 ـ أفريـل 1978 السنـة الثـالثة والعشـرون

الفكر
مجلة ثقافية

تصـدر بتـونس شهـريـا
مؤسسـهـا ومديـرهـا المسؤول
محمـد مـزالى

رئيس التحرير : البشير بن سلامة

الادارة : 13 نهـج دار الجلـد ـ تونس
تلفون : 260.237
الحسـاب الجـارى : 33769 ـ تونس
العنوان : صندوق البريد 596 ـ تونس

- تصدر مجلة الفكر عشر مرات فى السنة وتحتجب فى شهرى أوت وسبتمبر
- قيمة الاشتراك السنوى :

اشتراك عادى بتونس والبلاد العربية 3 دنانيـر .
اشتراكات بالخارج 3.500 ثلاثة دنانير ونصف
اشتراك الانصـار د 5 دنانير

- الاشتراكات يرسل معلومها فى حوالة بريدية باسم المجلة او يصب فى حسابها الجارى : 337.69 ـ تونس
- الرسائل لا ترد نشرت أم لم تنشر
- المراسلات تكون جميعا باسم : مدير مجلة « الفكر » صندوق البريد عدد 596 ـ تونس

EL-FIKR-Revue mensuelle culturelle 23° Année N° 7 Avril 1978

طبع الشركة التونسية لفنون الرسم 20 نهج المنجي سليم تونس
تحت رقم 292 / 78 — الايداع القانوني 2/ 78